Comprehensive Journal of Science
Volume (11), Issue (41), (JUNE, 2026)
ISSN: 3014-6266

مجلة العلوم الشاملة
المجلد (11) ملحق العدد 41 يونيو 2026
ردمد: 3014-6266

# آراء المستشرقين الفرنسيين حول رحلة ابن بطوطة: دراسة تاريخية نقدية

**أم الهناء محمد نصر محمد البسط**
**قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة سرت، سرت، ليبيا**
omalhana.naasr@su.edu.ly

https://doi.org/10.47832/2717-8293.4-3.24

*French Orientalist Views on Ibn Battuta's Journey: A Critical Historical Study*

*Umm al-Hana' Muhammad Nasr Muhammad al-Bast*
*Department of History, Faculty of Arts, University of Sirte, Sirte, Libya*

تاريخ الاستلام:2026/07/10 -تاريخ المراجعة:2026/07/18- تاريخ القبول: 2026/07/28- تاريخ للنشر: 29/ 8/ 2026

**الملخص**
تتناول هذه الدراسة آراء المستشرقين الفرنسيين حول رحلة ابن بطوطة، وتبحث في طبيعة تقويمهم لقيمتها التاريخية والجغرافية والحضارية، والأسس التي اعتمدوا عليها في قبول أخبارها أو نقدها، مع عناية خاصة بجهود التحقيق والترجمة الفرنسية وبالجدل المتعلق بصدقية بعض مراحل الرحلة، ولا سيما رحلة الشرق الأقصى والصين. كما تميز الدراسة بين المستشرقين الفرنسيين بالمعنى التاريخي وبين الباحثين اللاحقين العاملين في البيئة الأكاديمية الفرنسية، وتتناول مشاركة بنيامين رافائيل سانغينيتي في حدود إسهامه المباشر في المشروع الفرنسي لنشر الرحلة. واعتمدت الدراسة المنهج التاريخي والنقد المصدري المقارن، من خلال تحليل النصوص الفرنسية الأصلية، وموازنة أحكامها بمادة الرحلة والدراسات الحديثة ذات الصلة. وأظهرت النتائج أن الموقف الفرنسي لم يكن واحداً؛ إذ تراوح بين التقدير العلمي للرحلة، والنقد الجزئي لأخبارها، والتشكيك في بعض المسارات البعيدة. كما تبين أن الطبعة الفرنسية لدفرمري وسانغينيتي أسهمت في تثبيت المكانة العلمية للرحلة، لكنها أصبحت في الوقت نفسه وسيطاً نصياً وترجمياً أثّر في بعض القراءات اللاحقة. وتخلص الدراسة إلى أن القيمة العلمية لآراء المستشرقين تتحدد بمدى استنادها إلى النقد النصي والمقارنة بمصادر مستقلة، وأن تقويم رحلة ابن بطوطة يقتضي التمييز بين المشاهدة المباشرة والخبر المنقول والتدخل التحريري والترجمي.
**الكلمات المفتاحية**: ابن بطوطة؛ الاستشراق الفرنسي؛ أدب الرحلة؛ شارل دفرمري؛ غابرييل فيران؛ النقد المصدري.

**Abstract**
This study examines French Orientalist views of Ibn Battuta's *Rihla*, focusing on their assessment of its historical, geographical, and civilizational value and on the criteria used to accept, criticize, or question particular accounts. Special attention is given to the French editing and translation of the *Rihla* and to debates over the credibility of some distant itineraries, especially the journey to East Asia and China. The study distinguishes historical French Orientalists from later scholars working within French academic traditions and treats Beniamino Raffaello Sanguinetti only in relation to his direct participation in the French publication project. Methodologically, the research combines historical analysis with comparative source criticism by examining original French writings and reassessing their judgments in light of the *Rihla* and relevant modern scholarship. The findings show that there was no single French position: responses ranged from strong recognition of the work's scholarly value to partial criticism and skepticism toward specific routes. The Defrémery-Sanguinetti edition proved foundational for the European reception of Ibn Battuta, while also functioning as a textual and translational intermediary that influenced later interpretations. The study concludes that French assessments should be judged according to the quality of their textual criticism and comparative evidence, and that Ibn Battuta's narrative must be evaluated by distinguishing eyewitness observation, transmitted information, editorial intervention, and translation.
**Keywords:** Ibn Battuta; French Orientalism; *Rihla*; Charles Defrémery; Gabriel Ferrand; source criticism.

## 1 | مقدمة

يُعَدُّ أدب الرحلة من المصادر التاريخية المركبة؛ فهو لا يقتصر على تسجيل الانتقال بين الأمكنة، بل يحفظ أوصاف المدن والمجتمعات والطرق والعادات والنظم السياسية والاقتصادية والدينية. وفي هذا الإطار تحتل رحلة أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، المعروف بابن بطوطة، مكانة بارزة في التراث الجغرافي والتاريخي الإسلامي لما اتسمت به من اتساع جغرافي وتنوع في مستويات الخبر، من المشاهدة المباشرة إلى الرواية المنقولة. وقد جعل هذا التركيب النص قابلاً للقراءة

التاريخية والجغرافية والأدبية، وأثار في الوقت نفسه أسئلة تتصل بدرجة حجية أخباره وبالعلاقة بين تجربة الرحالة والصياغة النهائية التي أنجزها ابن جزي (Thouroude, 2021).

ولم يصل نص الرحلة إلى الحقل الأكاديمي الأوروبي الحديث بمعزل عن التحقيق والترجمة. فقد مثّل المشروع الذي أنجزه شارل دفرمري Charles Defrémery وبنيامين رافائيل سانغينيتي Beniamino Raffaello Sanguinetti في باريس خلال القرن التاسع عشر نقطة تحول في تاريخ تداول النص؛ إذ أُخرجت الرحلة في نص عربي مصحوب بترجمة فرنسية، اعتماداً على عدد من المخطوطات المحفوظة في باريس، ثم غدت هذه الطبعة مرجعاً واسع التأثير في الترجمات والدراسات اللاحقة (Defrémery & Sanguinetti, 1853, pp. xx-xxxiv; Tresso, 2023, pp. 56-58).

وتكشف مقدمة دفرمري وسانغينيتي أن الاهتمام الفرنسي بالرحلة لم يكن مجرد نقل لغوي، بل اقترن منذ البداية بتقويم قيمتها المصدرية. فقد منح المحققان كتب الرحالة العرب أهمية خاصة في معرفة الحياة الداخلية للمجتمعات الإسلامية، مع إقرارهما بأن نص ابن بطوطة يتضمن أخطاء واضطرابات ومبالغات تستدعي المقارنة بالمصادر المستقلة، من غير أن يقود ذلك عندهما إلى إسقاط صدق الرحالة أو قيمة الكتاب في مجموعه (Defrémer & Sanguinetti, 1853, pp. i-xii). ومن هنا يظهر مبكراً نموذج من «الثقة النقدية» يجمع بين الاعتراف بقيمة المصدر وإخضاع جزئياته للفحص.

وفي مقابل هذا الاتجاه، برز في مطلع القرن العشرين موقف أكثر تشدداً عند غابرييل فيران Gabriel Ferrand، ولا سيما في تحليله للقسم المتعلق بجنوب شرق آسيا والصين. فقد أعاد بناء المسارات وقارن أسماء المواضع والمسافات، وذهب إلى احتمال عدم وقوع بعض مراحل السفر كما وردت في النص، مع إبقائه احتمال أن يكون الاضطراب ناتجاً من تحرير ابن جزي أو انتقال النص (Ferrand, 1914, Vol. 2, pp. 426-45). وتكمن أهمية موقفه في أنه نقل النقاش من المديح العام أو النقد الجزئي إلى اختبار جغرافي صارم لصدقية جزء محدد من الرحلة.

غير أن التلقي الفرنسي لم يتوقف عند التحقيق أو التشكيك في المسارات؛ فقد استُخدمت الرحلة لاحقاً في دراسة المؤسسات والاجتماع والدين والعلاقات الثقافية. فقرأ بوسكيه ملاحظات ابن بطوطة بوصفها شاهداً على ممارسة المؤسسات في المجتمع (Bousquet, 1966)، ولفت شلهود إلى قيمتها الإثنولوجية (Chelhod, 1978)، ودرس ميكيل إسلام ابن بطوطة كما يظهر في الممارسة اليومية (Miquel, 1978)، بينما تناولت ميشو روايته عن القسطنطينية بوصفها شهادة تاريخية تحتاج إلى نقد المصدر والتحرير والترجمة (Micheau, 1987). وهذا التنوع يؤكد أن الحديث عن «رأي فرنسي» واحد يحجب اختلاف التخصصات والأسئلة والمناهج.

كما أعادت الدراسات الحديثة النظر في بعض المشكلات التي نسبت مباشرة إلى ابن بطوطة، فأظهرت أن جزءاً منها قد يرتبط بطبيعة النص المركب أو بالترجمة ودلالة المصطلحات. وقد بيّنت تريسو، من خلال دراسة أخبار الهند والأوبئة، أن الاختيار الترجمي قد يوجّه الفهم التاريخي، وأن المقارنة بالمصادر الفارسية الهندية تسمح بتأييد بعض الأخبار وتقييد بعضها الآخر (Tresso, 2023, pp. 55-77). ومن ثم لا يكفي تقويم الرحلة من خلال الترجمة الفرنسية وحدها، كما لا يكفي رد كل اضطراب إلى الرحالة من غير فحص طبقات النص ووسائط انتقاله.

وعلى هذا الأساس، تنطلق الدراسة من ضرورة التمييز بين ثلاثة مستويات مترابطة: النص الرحلي في صورته التي حررها ابن جزي، والطبعة/الترجمة الفرنسية التي نقلته إلى البحث الأوروبي، والقراءات الاستشراقية والفرنسية التي بنيت عليه. ويتيح هذا التمييز فحص إسهام المستشرقين الفرنسيين في خدمة الرحلة من جهة، وتقويم حدود أحكامهم ومناهجهم من جهة أخرى، بعيداً عن ثنائية القبول المطلق للاستشراق أو رفضه المطلق.

تتمثل الفجوة البحثية في توزيع الأدبيات ذات الصلة بابن بطوطة على مسارات متخصصة؛ فبعضها تناول القيمة الاجتماعية أو المؤسساتية أو الدينية للرحلة (Bousquet, 1966; Chelhod, 1978; Miquel, 1978)، وبعضها درس زيارة أو مساراً بعينه مثل القسطنطينية أو الشرق الأقصى (Micheau, 1987; Ferrand, 1914)، بينما ركزت دراسات أحدث على البناء السردي والجغرافيا الذهنية أو مشكلات الترجمة والنص المركب (Fauvelle-mar & Hirsch, 2003; Thouroude, 2021; Tresso, 2023)Ay. وفي حدود المادة التي اعتمدت عليها هذه الدراسة، لا تتجمع هذه المسارات عادة في قراءة تاريخية نقدية واحدة تجعل الموقف الفرنسي نفسه موضوعاً للتحليل عبر مراحله المختلفة.

ومن هنا تتمثل الفجوة التي تعالجها الدراسة في جمع ثلاثة أبعاد في إطار واحد: تتبع الدور الفرنسي في تحقيق الرحلة وترجمتها، وتحليل تنوع المواقف من قيمتها وصدقية أخبارها، ثم إعادة تقويم تلك المواقف في ضوء النقد النصي والدراسات الحديثة. كما تسعى الدراسة إلى تجاوز الخلط الاصطلاحي بين «المستشرق الفرنسي» بالمعنى التاريخي وبين الباحثين اللاحقين في البيئة الأكاديمية الفرنسية، وإلى بيان أثر الوسيط الترجمي في تشكيل بعض الأحكام؛ وهو بعد يمنح البحث مجاله الخاص ويبرر الانتقال من مجرد عرض أقوال المستشرقين إلى نقد أسسها ومداها.

**2 | مشكلة الدراسة**

تتمثل مشكلة الدراسة في أن الاهتمام الفرنسي برحلة ابن بطوطة أنتج مواقف متباينة: من تحقيق النص وترجمته والاعتراف بقيمته التاريخية والحضارية، إلى نقد بعض أخباره والتشكيك في وقوع بعض المسارات البعيدة. ويثير هذا التباين سؤالاً حول المعايير التي حكمت تلك المواقف، ومدى اتصالها بالنص العربي نفسه أو بعملية تحريره وترجمته، وحدود ما ظل صالحاً منها في ضوء الدراسات الحديثة. وعليه تتمحور المشكلة حول كيفية تشكل آراء المستشرقين الفرنسيين في رحلة ابن بطوطة، والأسس العلمية والمنهجية التي استندوا إليها في تقويم قيمتها وصدقية أخبارها، ومدى إمكان إعادة تقويم هذه الآراء نقدياً.

ويمكن صياغة المشكلة في التساؤل الرئيس التالي:
**ما طبيعة آراء المستشرقين الفرنسيين حول رحلة ابن بطوطة، وما الأسس العلمية والمنهجية التي حكمت تقويمهم لقيمتها التاريخية والحضارية وصدقية أخبارها؟**

التساؤلات الفرعية

1. كيف نشأ الاهتمام الفرنسي برحلة ابن بطوطة، وما أثر جهود التحقيق والترجمة في إدخالها إلى الحقل الأكاديمي الأوروبي؟
2. ما أبرز أوجه تقدير المستشرقين والباحثين الفرنسيين للقيمة التاريخية والجغرافية والحضارية للرحلة؟
3. ما الحجج والمعايير التي استند إليها الاتجاه النقدي الفرنسي، ولا سيما غابرييل فيران، في التشكيك في بعض أخبار الرحلة ومساراتها؟
4. إلى أي مدى أسهم التحقيق والترجمة والتعليق الفرنسي في تشكيل صورة ابن بطوطة وفي توجيه بعض القراءات اللاحقة؟
5. كيف يمكن إعادة تقويم هذه الآراء في ضوء النقد المصدري والدراسات الحديثة مع التمييز بين المشاهدة والخبر المنقول والتدخل التحريري والترجمي؟

**3 | أهمية الدراسة**

تنبع أهمية الدراسة من كونها تتناول رحلة ابن بطوطة لا بوصفها مصدراً تاريخياً فحسب، بل بوصفها أيضاً نصاً تشكل جزء مهم من تلقيه الأوروبي عبر المدرسة الفرنسية. وبذلك تربط الدراسة بين تاريخ الرحلة وتاريخ المعرفة الأوروبية بها، وتوضح كيف انتقل النص من المخطوط إلى التحقيق والترجمة ثم إلى التوظيف التاريخي والجغرافي والاجتماعي.
وتتمثل أهميتها النقدية في تفكيك صورة «الموقف الاستشراقي الموحد»، وإبراز اختلاف مواقف الباحثين بحسب الزمن والتخصص والمنهج، مع الفصل بين قيمة الإسهام العلمي في نشر النص وبين ضرورة مراجعة بعض الأحكام التي بنيت على معرفة جغرافية محدودة أو على اختيارات ترجمية قابلة للنقاش.
كما تقدم الدراسة إطاراً منهجياً لإعادة تقويم أخبار الرحلة من خلال الجمع بين النقد النصي والمقارنة بالمصادر المستقلة وفحص الترجمة، وهو ما يسهم في الدراسات العربية المعنية بتاريخ الاستشراق الفرنسي ونقد مصادر التاريخ الإسلامي.

**4 | أهداف الدراسة**

تهدف الدراسة إلى:

1. تتبع نشأة الاهتمام الفرنسي بابن بطوطة وبيان إسهام التحقيق والترجمة في نشر الرحلة أوروبياً.
2. تحليل أبرز المواقف الفرنسية من القيمة التاريخية والجغرافية والحضارية للرحلة.
3. فحص الأسس والحجج التي قامت عليها المواقف النقدية من صدقية بعض الأخبار والمسارات، ولا سيما موقف غابرييل فيران.
4. بيان أثر الطبعة والترجمة الفرنسية في تشكيل تلقي الرحلة والتمييز بين النص العربي والتفسير الناتج عن الترجمة أو التعليق.
5. إعادة تقويم المواقف الفرنسية في ضوء الدراسات الحديثة والنقد المصدري المقارن.

**5 | حدود الدراسة**

- الحدود الموضوعية: تقتصر الدراسة على الآراء الفرنسية ذات الصلة المباشرة بقيمة رحلة ابن بطوطة، وصدقية أخبارها، وتحقيقها وترجمتها وتوظيفها مصدراً تاريخياً وحضارياً، ولا تتناول جميع موضوعات الرحلة أو جميع البلدان التي زارها إلا بالقدر الذي يخدم هذا المحور.
- الحدود الزمنية: تبدأ الدراسة من تبلور الاهتمام الفرنسي المنظم بالرحلة في القرن التاسع عشر، مع مشروع التحقيق والترجمة، وتمتد إلى القراءات الفرنسية اللاحقة التي أعادت توظيف النص أو تقويمه. وتُستدعى الدراسات الحديثة غير الفرنسية عند الحاجة إلى اختبار الأحكام القديمة، لا بوصفها موضوع الدراسة الرئيس.
- الحدود المكانية والمؤسسية: ينصرف البحث أساساً إلى البيئة العلمية الفرنسية ومؤسساتها ونشرها للنص. ولا يُعد سانغينيتي مستشرقاً فرنسياً من حيث الجنسية، بل يُتناول لكونه شريكاً مباشراً في المشروع الفرنسي الذي أنجزه مع دفرمري. كما يُشار إلى الباحثين اللاحقين بوصفهم جزءاً من التلقي الأكاديمي الفرنسي عندما لا ينطبق عليهم وصف «المستشرق» بالمعنى التاريخي.
- الحدود المصدرية: تعتمد الدراسة على النصوص الفرنسية الأصلية للمستشرقين والباحثين موضوع البحث، وفي مقدمتها مقدمة دفرمري وسانغينيتي، ومقال رينان، ونص فيران، ثم الدراسات الفرنسية اللاحقة ذات الصلة. ويُرجع إلى النص العربي المثبت في الطبعة الثنائية والدراسات النصية الحديثة في المواضع التي تستلزم المقارنة، من غير ادعاء إنجاز تحقيق نصي جديد للرحلة.

**6 | منهجية الدراسة**

تعتمد الدراسة المنهج التاريخي لتتبع تطور التلقي الفرنسي ووضع كل رأي في سياقه الزمني والعلمي، والتحليل النقدي لتفكيك حجج المستشرقين وتصنيف مواقفهم، والنقد المصدري المقارن لموازنة الأحكام بالنص الرحلي وبالمصادر والدراسات المستقلة حيث تتوافر. ويُطبق ذلك عبر التمييز بين مستويات الخبر في الرحلة، وفحص أثر تحرير ابن جزي، ومقارنة الترجمة

الفرنسية بالأصل العربي في القضايا التي تتوقف على دلالة مصطلح أو تعيين موضع، مع الفصل بين عرض الرأي في المبحث الثاني وتقويم قوته وحدوده في المبحث الثالث.

**7 | خطة البحث**

## المبحث الأول: رحلة ابن بطوطة والاهتمام الاستشراقي الفرنسي بها

يمثل التعرف إلى طبيعة رحلة ابن بطوطة وظروف تدوينها وقيمتها المصدرية مدخلاً ضرورياً لفهم مواقف المستشرقين الفرنسيين منها؛ ذلك أن أحكام هؤلاء المستشرقين لم تنصب على نص جغرافي مجرد، وإنما على مؤلَّف مركب جمع بين المشاهدة الشخصية والخبر المنقول والوصف الجغرافي والتسجيل الاجتماعي والحكاية والعجائبي، ثم وصل إلى صورته المكتوبة النهائية عبر عملية تحرير قام بها محمد بن جزي الكلبي في بلاط السلطان المريني أبي عنان. ومن ثم فإن دراسة الاهتمام الفرنسي بالرحلة تقتضي أولاً تحديد مكانتها في التراث الرحلي الإسلامي، ثم تتبع انتقالها إلى البيئة العلمية الأوروبية والفرنسية، وصولاً إلى المشروع الذي أنجزه شارل دفرمري وبنيامين رافائيل سانغينيتي في تحقيق نصها وترجمته ونشره في القرن التاسع عشر.

### المطلب الأول: ابن بطوطة ورحلته وقيمتها مصدراً للتاريخ والحضارة

يعد أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، المعروف بابن بطوطة، واحداً من أبرز الرحالة المسلمين في العصر الوسيط، وقد ولد بمدينة طنجة سنة 703هـ/1304م في أسرة ارتبط عدد من أفرادها بالعلوم الشرعية والقضاء. وينبه زكي محمد حسن إلى المكانة المتميزة التي احتلها ابن بطوطة بين الرحالة المسلمين، لما اتسمت به رحلته من اتساع جغرافي وغزارة في الأخبار وعناية خاصة بوصف الحياة الاجتماعية في البلاد التي زارها، وهي سمات تجاوز بها مجرد تسجيل الطرق والمسافات إلى تقديم صورة متعددة الجوانب عن المجتمعات التي اتصل بها (حسن، 2013، ص. 101). وتشهد هذه النظرة المبكرة إلى الرحلة على أن أهميتها لا ترجع إلى طول المسافة وحده، بل إلى طبيعة المعلومات التي حملها نصها.

خرج ابن بطوطة من طنجة سنة 725هـ/1325م وهو في مطلع شبابه قاصداً الحج، غير أن الوصول إلى مكة لم يكن نهاية رحلته، بل أصبح بداية لأسفار متتابعة امتدت قرابة ثلاثة عقود. وقد مر في مرحلته الأولى ببلاد المغرب الأوسط وإفريقية وطرابلس ومصر، ثم بلاد الشام والحجاز، قبل أن تتسع دائرة ترحاله إلى العراق وفارس والأناضول وسواحل البحر الأسود وآسيا الوسطى والهند وجزر المالديف وسيلان وجنوب شرقي آسيا والصين، ثم عاد عبر المشرق إلى المغرب، قبل أن يقوم برحلتين أخريين نحو الأندلس وبلاد السودان الغربي. وبذلك تجاوز مجال رحلته الحدود السياسية لدولة أو إقليم، واتخذ طابعاً عالمياً قياساً إلى حركة السفر في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي (حسن، 2013، ص ص. 103–117).

ولا تنحصر قيمة الرحلة في اتساع خط السير؛ إذ تجمع مادتها بين وصف العمران والمؤسسات والعلاقات الاجتماعية والأسواق والطرق والموانئ والعادات والممارسات الدينية. وتظهر هذه السعة في أخبار مصر ودمشق والأناضول والهند والصين وغيرها، بما يتيح للمؤرخ الإفادة منها في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والجغرافي إلى جانب التاريخ السياسي. وقد أبرز زكي محمد حسن هذه الخصائص في حديثه عن تنوع مشاهدات ابن بطوطة، كما بينت الدراسات الأدبية الحديثة أن الوصف المكاني والعادات والحياة اليومية تؤدي في الرحلة وظيفة توثيقية لا تنفصل عن بنائها السردي (حسن، 2013، ص ص. 104–114؛ منصور، 2011، ص ص. 89–98). غير أن هذا الثراء لا يعني تساوي الأخبار في درجة الحجية؛ فالمادة التي عاينها الرحالة تختلف منهجياً عن الأخبار التي نقلها بالسماع أو التي أعيد تشكيلها في مرحلة التحرير.

غير أن الاستفادة من الرحلة مصدراً تاريخياً تقتضي الانتباه إلى طبيعة تكوين النص الذي وصل إلينا. فقد عاد ابن بطوطة إلى المغرب، ثم ارتبط مشروع تدوين الرحلة ببلاط السلطان المريني أبي عنان، وتولى الأديب الأندلسي محمد بن جزي الكلبي تحرير المادة وترتيبها. ويرى زكي محمد حسن أن ابن جزي قام بتلخيص الرحلة وترتيبها وأضاف إليها بعض الأشعار، واستعان في بعض المواضع بكتب الرحلات المعروفة، ولا سيما رحلة ابن جبير، ثم فرغ من عمله سنة 757هـ/1356م (حسن، 2013، ص ص. 101–102). وهذا يعني أن النص الباقي بين أيدينا ليس تسجيلاً يومياً بسيطاً خالصاً من تدخل المحرر، بل نص تشكل في مرحلة لاحقة من عملية السفر.

ومع ذلك، ينبغي الحذر من القطع بأن الرحلة كلها كانت إملاءً شفوياً من الذاكرة دون أية مادة مكتوبة. فقد أعاد عبد الله العلوي مناقشة هذه المسألة استناداً إلى العبارة الختامية لابن جزي التي تحدث فيها عن «تلخيص تقييد» ابن بطوطة، وذهب إلى احتمال وجود تدوينات أو مذكرات سابقة استفاد منها أثناء إعداد النص النهائي (العلوي، 2023، ص. 23). وهذا الرأي لا يلغي الدور التحريري لابن جزي، لكنه ينبه إلى أن قضية التدوين أكثر تعقيداً من ثنائية بسيطة بين «كتاب كتبه ابن بطوطة» و«رحلة أملاها كلها من الذاكرة».

وتقود هذه المسألة إلى واحدة من أهم القضايا المنهجية في التعامل مع الرحلة، وهي التمييز بين المشاهدة المباشرة والخبر المنقول. فليس كل ما أورده ابن بطوطة مما رآه بعينه؛ إذ يصرح في بعض المواضع بأنه تلقى الخبر عن أشخاص التقاهم. ويورد زكي محمد حسن مثالاً واضحاً في أخبار المناطق الواقعة شمال مدينة بلغار، حيث يقرر أن المعلومات التي نقلها ابن بطوطة عن تلك الأصقاع كان مصدرها ما سمعه من التجار، لا تجربة السفر المباشر إليها (حسن، 2013، ص. 109). ومن ثم فإن النقد العلمي للرحلة لا يصح أن يعامل جميع أخبارها على درجة واحدة من الحجية، بل ينبغي تصنيفها بحسب مصدر الخبر وظروف حصول الرحالة عليه.

كما أن الرحلة تمزج بين الخبر الواقعي والحكاية والعجائبي؛ وهي سمة من سمات أدب الرحلات الوسيط أكثر من كونها عيباً خاصاً بابن بطوطة. فالنص الرحلي يجمع بطبيعته بين نقل المعلومات والمشاهد وبين القصص التي وقعت للرحالة أو سمعها من غيره، وهو ما يمنحه في الوقت نفسه بعداً معرفياً وبعداً سردياً (منصور، 2011، ص. 56). ولذلك فإن وجود

روايات غريبة أو أخبار غير مباشرة لا يسمح بإهدار المادة التاريخية كلها، وإنما يفرض إخضاع كل خبر للنقد والمقارنة بمصادر عصره.

وتؤكد الدراسات الحديثة جدوى هذا المنهج الجزئي في النقد. ففي دراسة أخبار الهند مثلاً، توضح تريسو أن نص ابن بطوطة يقدم مادة تاريخية وسياسية واقتصادية واجتماعية واسعة، وأن الدراسات الحديثة لتاريخ الهند الوسيط لا تزال تتعامل معه مصدراً مهماً، مع ضرورة مقارنته بالمصادر الفارسية الهندية ومراعاة مشكلات الترجمة ودلالة المصطلحات (Tresso, 2023, pp. 57-58). وهذا يعزز الرأي القائل بأن قيمة الرحلة لا تقاس بمدى إمكان التسليم بكل خبر فيها، بل بقدرة الباحث على التمييز بين طبقات مادتها ومصادر معلوماتها.

وبذلك تحتل رحلة ابن بطوطة موقعاً متميزاً بين مصادر تاريخ العالم الإسلامي في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، لأنها تقدم رؤية عابرة للأقاليم تجمع بين التاريخ والجغرافيا والاجتماع والاقتصاد والثقافة. وهي لا تحل محل المصادر السياسية والحوليات المحلية، لكنها تكملها من زاوية شاهد متحرك انتقل بين عدد كبير من المجتمعات وسجل تفاصيل يومية لا تكون عادة محور اهتمام مؤرخي البلاطات والدول. وقد تنبه دفرمري وسانغينيتي أنفسهما إلى هذه الخصوصية، فقررا في مقدمة نشرتهما أن كتب الرحالة العرب تكشف عن الحياة الداخلية للمجتمع الإسلامي وعاداته بصورة قد تفوق ما تقدمه كتب التاريخ المقتصرة على الحروب والصراعات السياسية (Defrémery & Sanguinetti, 1853, pp. i-ii).

**المطلب الثاني: نشأة الاهتمام الفرنسي برحلة ابن بطوطة**

لم يبدأ التعرف الأوروبي إلى رحلة ابن بطوطة بالطبعة الفرنسية الكاملة في منتصف القرن التاسع عشر، بل سبقه طور من التعرف التدريجي على مختصرات ومقاطع من النص. وتشير مقدمة دفرمري وسانغينيتي إلى جهود مبكرة ارتبطت بأولريش ياسبر سيتزن (Ulrich Jasper Seetzen) ويوهان لودفيغ بوركهارت (Johann Ludwig Burckhardt)، ثم جاءت ترجمة صمويل لي (Samuel Lee) الإنجليزية لمختصر الرحلة سنة 1829. ومن ثم يجب وضع المشروع الفرنسي، على مركزيته، في سياق أوروبي أوسع سبق صدور التحقيق الكامل (Defrémery & Sanguinetti, 1853, pp. xiii-xvi).

أما التحول الحاسم في الاهتمام الفرنسي فقد وقع خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، عندما أصبحت نسخ من نص الرحلة الكامل أو شبه الكامل متاحة للدارسين في باريس. وقد ذكر دفرمري وسانغينيتي في مقدمتهما أن توفر مخطوطات أصلية أتاح الانتقال من الاعتماد على المختصرات إلى دراسة النص نفسه، وربطا بعض هذا التوفر بما آلت إليه مجموعات مخطوطة إلى المؤسسات الفرنسية في سياق الوجود الفرنسي في الجزائر (Defrémery & Sanguinetti, 1853, pp. ii-iii). ومع ذلك لا يصح علمياً القول إن جميع المخطوطات الخمس جاءت من مكتبات قسنطينة أو الجزائر؛ فالمعلومات الحديثة عن تاريخ المجموعة تبين اختلاف مصادر بعض النسخ، ومنها مخطوطة وصلت عن طريق دبلوماسي فرنسي سابق في المغرب. ولذلك يجب التفريق بين السياق الاستعماري العام الذي ساعد على انتقال المخطوطات إلى باريس وبين تاريخ اقتناء كل نسخة على حدة (Tresso, 2023, p. 57).

وقد أصبح وجود هذه المخطوطات في المكتبة الإمبراطورية بباريس أساساً لتشكل سلسلة من الأعمال الفرنسية السابقة للطبعة الكاملة. ففي سنة 1843 نشر البارون دي سلين Baron de Slane ترجمة للقسم المتعلق بالسودان مصحوبة بملاحظات، كما نشر إدوار دولورييه Édouard Dulaurier سنة 1847 نصاً وترجمة للقسم المتصل بأرخبيل جنوب شرقي آسيا. وشرع شارل دفرمري نفسه في نشر أجزاء من الرحلة، فترجم نصوصاً تتعلق بفارس وآسيا الوسطى، ثم القرم والقبجاق وآسيا الصغرى وبعض أخبار المغول، قبل أن يصدر أوغست شيربونو Auguste Cherbonneau سنة 1852 ترجمة للقسم الممتد من شمال أفريقيا إلى مصر وبدايات الطريق نحو بلاد الشام (Defrémery & Sanguinetti, 1853, pp. xvi-xx). وتؤكد سجلات المكتبة الوطنية الفرنسية وجود طبعات مستقلة لأعمال دفرمري في 1848 و1851، ولعمل شيربونو سنة 1852.

وتكشف هذه الأعمال أن الاهتمام الفرنسي تطور من نشر مقاطع منتقاة إلى مقابلة المخطوطات ثم إعداد النص كاملاً. ولم يكن الدافع جغرافياً فقط؛ فقد نظر المحققون إلى الرحلة بوصفها مصدراً لتاريخ المجتمعات والمؤسسات والعادات، في وقت كان المنهج الفيلولوجي ومشروعات الجمعية الآسيوية في نشر النصوص الشرقية يوفران الإطار المؤسسي لهذا العمل (Defrémery & Sanguinetti, 1853, pp. i-ii, xvi-xx).

كما ارتبط الاهتمام الفرنسي بمشكلة نقد النص نفسه. فوجود أكثر من مخطوطة، واختلاف بعض القراءات، والتباعد الزمني بين الرحلة وتحرير نصها، فضلاً عن أسماء المدن والأعلام والمصطلحات المحلية، جعل العمل عليها مجالاً ملائماً للمنهج الفيلولوجي الذي كان يحتل مكانة مركزية في الاستشراق الأوروبي في القرن التاسع عشر. ومن هنا جمع المشروع الفرنسي بين ثلاثة مستويات مترابطة: اكتشاف النص، وضبطه من خلال المقابلة بين المخطوطات، ثم نقله إلى الفرنسية مع تفسير ما يحتاج إلى إيضاح. وقد مهد تراكم الأعمال الجزئية في أربعينيات القرن التاسع عشر وبداية خمسينياته للانتقال إلى إصدار الرحلة كاملة.

ومن المهم في هذا السياق عدم اختزال نشأة الاهتمام الفرنسي بابن بطوطة في خلفية استعمارية وحدها، كما لا يصح فصلها تماماً عنها. فقد أسهم التوسع الفرنسي في شمال أفريقيا في انتقال مخطوطات ومعارف إلى المؤسسات الفرنسية، لكن التعامل الأكاديمي معها ارتبط أيضاً بتطور الدراسات العربية والفيلولوجيا والجغرافيا التاريخية ونشاط الجمعية الآسيوية. ومن ثم فإن القراءة التاريخية الأكثر دقة هي التي تدرس العلاقة بين السياق السياسي الذي أتاح تداول بعض المادة المخطوطة وبين العمل العلمي الذي قام به المستشرقون في فحصها وتحقيقها وترجمتها، دون تحويل أحد الجانبين إلى تفسير وحيد.

وأسفر هذا المسار عن تحول رحلة ابن بطوطة من نص كان معروفاً في أوروبا بصورة جزئية ومختصرة إلى مصدر متاح للقراءة المباشرة والمقارنة. وهذا التحول هو الذي أعد الأرضية لمشروع دفرمري وسانغينيتي، الذي أصبح أهم محطة في تاريخ التلقي الفرنسي للرحلة خلال القرن التاسع عشر.

**المطلب الثالث: جهود المستشرقين في تحقيق الرحلة وترجمتها ونشرها**

يمثل مشروع شارل دفرمري Charles Defrémery وبنيامين رافائيل سانغينيتي Beniamino Raffaello Sanguinetti المرحلة الأبرز في تاريخ نشر رحلة ابن بطوطة في فرنسا. ومن الناحية الاصطلاحية ينبغي تسجيل ملاحظة مهمة: سانغينيتي إيطالي الأصل، وإن كان نشاطه العلمي ارتبط بباريس والجمعية الآسيوية والبيئة الاستشراقية الفرنسية؛ ولذلك فإن إدراجه في هذا البحث يتم بوصفه شريكاً مباشراً في المشروع الفرنسي لنشر الرحلة، لا على أساس نسبة قومية غير دقيقة إليه. وقد بدأ صدور Voyages d’Ibn Batoutah: Texte arabe, accompagné d’une traduction في باريس عن المطبعة الإمبراطورية سنة 1853، وتتابعت أجزاؤه الأربعة خلال خمسينيات القرن التاسع عشر. وتسجل المكتبة الوطنية الفرنسية المجموعة ضمن منشورات 1853–1859.

ولم يأت هذا المشروع من فراغ؛ إذ كان دفرمري قد اشتغل قبل الطبعة الكاملة على مقاطع متعددة من الرحلة، وهو ما أكسبه معرفة مسبقة بمشكلاتها الجغرافية والنصية. أما سانغينيتي فقد شاركه في مقابلة النص وترجمته، وبذلك تحول العمل من ترجمات جزئية متفرقة إلى مشروع يسعى إلى تقديم النص العربي مع ترجمة فرنسية في عمل متسلسل. وتبين مقدمة المحققين أنهما أعادا النظر في بعض ترجمات المقاطع التي سبق نشرها في ضوء عدد أكبر من المخطوطات، وهو مؤشر على أن الطبعة الكاملة لم تكن مجرد جمع للمقالات السابقة، وإنما إعادة فحص للنص على أساس مخطوط أوسع (Defrémery & Sanguinetti, 1853, pp. xvi-xx).

وكانت أهم نقطة قوة في المشروع توفر مجموعة من مخطوطات الرحلة في المكتبة الإمبراطورية بباريس. وقد ذكر المحققان وجود خمس مخطوطات، اثنتان منها تضمان العمل كاملاً، ويمكن الجمع بين اثنتين أخريين لتكوين نسخة ثالثة، في حين تتضمن الخامسة فجوات كبيرة (Defrémery & Sanguinetti, 1853, pp. xx-xxvi). وتؤكد الدراسة الحديثة لتريسو استمرار حفظ هذه المخطوطات في المكتبة الوطنية الفرنسية، وتحددها في الأرقام الحالية: Arabe 2291 (الرقم القديم 907)، Arabe 2289 (910)، Arabe 2287 (909)، Arabe 2290 (908)، وArabe 2288 (911) (Tresso, 2023, p. 57).

وتكتسب المخطوطة ذات الرقم القديم 907 أهمية خاصة لاحتوائها على قسم من العمل يحمل توقيع ابن جزي وتاريخ صفر سنة 757هـ/فبراير 1356م، ولذلك عوملت باعتبارها ذات قيمة نصية استثنائية في تاريخ الرحلة. أما المخطوطة 910، المؤرخة بسنة 1180هـ/1766م، فقد وصفها المحققان بأنها من أكمل النسخ وأصحها، واعتمدا عليها أساساً في القسم الأول من عملهما قبل الانتقال، حيث أمكن، إلى النسخة المرتبطة بابن جزي، مع مقابلة القراءة على بقية المخطوطات (Defrémery & Sanguinetti, 1853, pp. xx-xxvi; Tresso, 2023, p. 57).

وتكشف هذه الطريقة عن ملمح نقدي واضح في عملهما؛ فلم يلتزما مخطوطة واحدة التزاماً آلياً، بل قارنا القراءات واختارا ما رأياه أصح أو أكمل. وأوضحا أنهما كانا قد جمعا عدداً أكبر من الفروق بين النسخ، غير أن الشكل الطباعي الذي فرضه مشروع الجمعية الآسيوية لم يسمح بوضع جهاز نقدي واسع في أسفل الصفحات، فاختُصر عدد من الفروق، ووُضعت القراءات المهمة والإيضاحات في جداول أو إضافات في نهاية المجلدات (Defrémery & Sanguinetti, 1853, pp. xxiv-xxviii). وتظهر صفحات «Variantes et notes» في الطبعة بالفعل مقارنة قراءات المخطوطات 908 و909 و910 و911 في مواضع مختلفة من النص.

أما الترجمة، فقد أعلن المحققان أن غايتهما كانت بلوغ أكبر قدر ممكن من الدقة مع الحفاظ على سلامة العبارة الفرنسية. ولم تكن المهمة يسيرة، بسبب ما في النص من مصطلحات صوفية ومحلية مغاربية، وأسماء أماكن وأعلام، ونثر مسجوع وأبيات شعرية، إلى جانب مشكلات نسخية ولغوية. ولهذا استعانا بالدراسات المعجمية وأعمال المستشرقين السابقين، وأعادا النظر أثناء الطباعة في عدد من القراءات والترجمات، ووضعا التصحيحات في نهاية المجلد عند الضرورة (Defrémery & Sanguinetti, 1853, pp. xxviii-xxxiv).

ومن خصائص الطبعة كذلك أن المحققين لم يكتفيا بالترجمة الحرفية، بل سعيا إلى تقديم إيضاحات تاريخية وجغرافية حيث رأيا أن كلام ابن بطوطة يحتاج إلى دعم أو تصحيح. وهما يصرحان بأن نظام السلسلة التي نشرت فيها الرحلة لم يسمح بتعليق موسع، ولذلك لجآ إلى إدراج بعض التفسيرات التاريخية والجغرافية الضرورية ضمن الملاحظات والفهارس وجداول الاختلافات. وهذا الجانب مهم في دراسة الاستشراق الفرنسي؛ لأن الطبعة لم تكن قناة محايدة لنقل النص فقط، وإنما كانت في الوقت نفسه قراءة علمية للنص وتفسيراً له.

وقد صاحَب هذه القراءة موقف مبكر من صدقية ابن بطوطة. فعلى الرغم من إقرار دفرمري وسانغينيتي بوجود أخطاء في ترتيب بعض الطرق والتواريخ وبأن طبيعة تحرير الرحلة قد تفسر بعض الاضطراب، فإنهما لم يتخذا من ذلك أساساً لرفض النص كله؛ بل عبّرا عن ثقة واضحة في صدق الرحالة في خطوطه العامة، مع إخضاع التفاصيل للفحص بالمقارنة مع المصادر الأخرى (Defrémery & Sanguinetti, 1853, pp. ix-x). وهذا الموقف مهم لأنه يكشف منذ البداية عن وجود تمييز في الاستشراق الفرنسي بين نقد جزئيات الرحلة وبين الطعن في أصلها وقيمتها الكلية.

وقد ترتب على إصدار النص العربي مصحوباً بالترجمة الفرنسية أثر تجاوز فرنسا إلى الدراسات الأوروبية عموماً. وتؤكد تريسو أن النسخة التي أقامها دفرمري وسانغينيتي اكتسبت منزلة Editio Princeps، وأصبحت النسخة المعيارية

والأوسع انتشاراً من رحلة ابن بطوطة، سواء بالنسبة إلى النص العربي أو الترجمات اللاحقة (Tresso, 2023, p. 57). كما حافظت الترجمة الإنجليزية التي بدأها هاملتون جب H. A. R. Gibb واستكملها لاحقاً C. F. Beckingham على تقسيم الطبعة الفرنسية إلى أربعة مجلدات وأثبتت في الهوامش أرقام صفحاتها، وهو ما يدل على استمرار سلطة الطبعة الفرنسية في الدراسات اللاحقة (Tresso, 2023, pp. 57-58).

غير أن تحول الطبعة إلى مرجع واسع الاستخدام لا يعني خلوها من مشكلات الترجمة. فقد بينت الدراسات الحديثة أن اختيار المقابل الفرنسي لبعض الألفاظ العربية استطاع أن يؤثر في فهم الباحثين اللاحقين للنص. وتقدم تريسو مثالاً على لفظ وباء؛ إذ ترجم في بعض المواضع عند دفرمري وسانغينيتي إلى peste، وفي موضع آخر إلى maladie contagieuse، وهي اختلافات كان لها أثر في تفسير المؤرخين لطبيعة الأوبئة التي وصفها ابن بطوطة في الهند (Tresso, 2023, p. 70). وهذه الملاحظة لا تنتقص من القيمة التأسيسية للطبعة، لكنها تؤكد ضرورة عدم الفصل بين تحقيق النص وبين تاريخ تلقيه عبر الترجمة.

ويكشف هذا المسار أن الاهتمام الفرنسي انتقل من الترجمة الجزئية إلى المشروع النقدي الكامل، ثم إلى اعتماد الطبعة مرجعاً للدراسات اللاحقة. والأهم أن المرحلة المؤسسة لم تبدأ برفض ابن بطوطة، بل بجمع نصه وضبطه وترجمته والاعتراف بقيمته، وهو ما مهّد لاحقاً لظهور مناقشات أكثر حدة حول صدقية بعض مراحل الرحلة.

**المبحث الثاني: آراء المستشرقين الفرنسيين في رحلة ابن بطوطة**

يمثل الوقوف على آراء المستشرقين الفرنسيين في رحلة ابن بطوطة مرحلة أساسية في هذه الدراسة؛ لأن الاهتمام الفرنسي بالنص لم يقتصر على إخراجه من المخطوط إلى الطباعة والترجمة، وإنما تجاوزه إلى تقويم مادته واختبار صدقية أخبارها والاستفادة منها في كتابة التاريخ والجغرافيا ودراسة المجتمع الإسلامي في العصر الوسيط. ومنذ منتصف القرن التاسع عشر أخذت تتشكل داخل البيئة العلمية الفرنسية قراءات مختلفة للرحلة؛ فمنها ما غلب عليه الاهتمام بالتحقيق والفيلولوجيا والجغرافيا التاريخية، ومنها ما اتجه إلى النقد الصارم لبعض المسارات، ولا سيما رحلة الشرق الأقصى، ومنها ما أعاد في الدراسات اللاحقة قراءة النص بوصفه مصدراً اجتماعياً وأنثروبولوجياً ودينياً مع إخضاع أخباره للنقد الجزئي. ومن ثم لا يصح الحديث عن «رأي فرنسي» واحد في ابن بطوطة، بل عن مواقف تتفاوت في أدواتها ونتائجها بحسب تخصص الباحث والسؤال الذي وجهه إلى النص.

وينبغي، من الناحية الاصطلاحية، التمييز بين المستشرقين الفرنسيين بالمعنى التاريخي للكلمة، مثل شارل دفرمري Charles Defrémery وإرنست رينان Ernest Renan وغابرييل فيران Gabriel Ferrand وبرنار كارا دو فو Bernard Carra de Vaux، وبين عدد من الباحثين الذين ينتمون إلى الدراسات الفرنسية الحديثة في التاريخ والإسلاميات والأنثروبولوجيا، مثل أندريه ميكيل André Miquel وفرانسواز ميشو Françoise Micheau وج.-هـ. بوسكيه G.-H. Bousquet. وإدراج الفئة الثانية في هذا المبحث لا يعني وصفها جميعاً بالاستشراق بالمعنى التقليدي، وإنما يُقصد به تتبع امتداد التلقي العلمي الفرنسي لرحلة ابن بطوطة، وهو ما يسمح بالكشف عن تطور الحكم عليها من القرن التاسع عشر إلى الدراسات الحديثة.

المطلب الأول: آراء المستشرقين الفرنسيين في القيمة التاريخية والجغرافية والحضارية للرحلة

كان الموقف الذي أعلن عنه دفرمري وسانغينيتي في مقدمة الطبعة الفرنسية من أوضح الشواهد المبكرة على القيمة التي منحها الوسط الاستشراقي الفرنسي لكتب الرحلات العربية عامة ورحلة ابن بطوطة خاصة. فقد رأى المحققان أن الوثائق الجغرافية العربية تقدم للمؤرخ والجغرافي والباحث في المجتمعات مادة غنية من الوقائع والمعلومات، وأن كتب الرحالة تكشف الحياة الداخلية للمجتمع الإسلامي وعاداته ومعتقداته بصورة لا توفرها كتب التاريخ التي يطغى عليها تسجيل الحروب والانقلابات وأخبار الحكام. ثم خصّا ابن بطوطة بمكانة مميزة، مؤكدين أن عدداً قليلاً من الكتاب يمكن مقارنته بهذا «الرحالة الذي لا يكل» من حيث ثراء المادة التي نقلها (Defrémery & Sanguinetti, 1853, pp. i-ii). وهذا الحكم يبين أن قيمة الرحلة في نظرهما لم تكن جغرافية بحتة، بل ارتبطت منذ البداية بقدرتها على الكشف عن المجتمع والحضارة الإسلامية من الداخل.

ويتأكد هذا الموقف عندما ينتقل المحققان من الحديث العام إلى تقويم أخبار ابن بطوطة نفسها؛ فقد رفضا التسليم الآلي بكل تفصيل، لكنهما قررا أن اختبار صدق الرحالة يجب أن يقوم على مقارنة روايته بشهادات من زاروا الأقاليم نفسها أو كتبوا عنها في زمن قريب من زمنه. وبعد إجراء مثل هذه المقارنات، خلصا إلى أن أقوال ابن بطوطة في «معظم الحالات» تتفق بدرجة معتبرة مع أخبار معاصريه ومن جاء بعدهم من الأوروبيين والشرقيين. ولم يكن ذلك حكماً نظرياً، بل استشهدا بنشاط الملاحة في النيل، وأخبار الساحل الشرقي لأفريقيا، ومقديشو وكلوة، وغيرها، لإظهار أن المقارنة المستقلة تستطيع تأييد جانب مهم من روايته (Defrémery & Sanguinetti, 1853, pp. ix-xii).

وتكشف هذه الطريقة أن دفرمري لم يتعامل مع ابن بطوطة بوصفه راوياً لا يُناقش، ولا بوصفه مؤلفاً فاقد القيمة بسبب وقوعه في الخطأ، وإنما بوصفه مخبراً تاريخياً يحتاج إلى نقد المصدر. بل إن المقدمة الفرنسية تجمع بين حكمين قد يبدوان متعارضين في الظاهر: فهي تقر بوجود مبالغات وإيمان بالعجائب ومواضع من الاضطراب، لكنها في الوقت نفسه تقرر أن «صدق» ابن بطوطة في جوهره لا يدعو إلى الشك، وأن الأخطاء لا تسوغ إسقاط شهادته كلها (Defrémery & Sanguinetti, 1853, p. ix). وهذه الثنائية ستظل حاضرة، بصور مختلفة، في كثير من الدراسات اللاحقة: قبول الرحلة بوصفها مصدراً مهماً، مع عدم منح جميع أجزائها الدرجة نفسها من الحجية.

ولم يكن إرنست رينان بعيداً عن هذا الاتجاه الإيجابي المشروط. ففي مقالته عن ابن بطوطة، التي كتب أصلها سنة 1853 وأعاد نشرها في Mélanges d'histoire et de voyages، وصفه بأنه، بين الرحالة العرب، من أكثرهم فضولاً وانتباهاً واستقامة، ورأى أن الجمعية الآسيوية لم تكن تستطيع أن تبدأ مشروعها لنشر النصوص الشرقية بعمل أنسب من رحلة ابن بطوطة. كما عدّ ندرة المخطوطات الكاملة سبباً في تأخر معرفة الأوروبيين بقيمة مؤلف بهذا الحجم والأهمية (Renan, 1878, pp. 291-293). ولا تكمن دلالة هذا القول في المديح الشخصي وحده، وإنما في اعتبار الرحلة وثيقة تستحق أن تُجعل في مقدمة النصوص الشرقية التي ينبغي نشرها لخدمة الدراسات العلمية.

ورأى رينان في حركة ابن بطوطة نفسها دليلاً على ظاهرة أوسع من سيرة فردية؛ فالرحلة، في قراءته، تسمح برؤية مقدار الحركة داخل العالم الإسلامي وقوة الروابط التي كانت تصل بين أقاليمه. وقد لاحظ أن الرحالة وجد في مناطق متباعدة علماء وقضاة ومتدينين وتجاراً من المغرب، وأن قدرته على الإقامة والعمل والزواج والاندماج في مجتمعات بعيدة تكشف عن مستوى ملحوظ من التواصل داخل المجال الإسلامي. ولذلك تحولت الرحلة عند رينان من سجل لمسار فرد إلى مادة يمكن من خلالها فهم وحدة المجال الإسلامي وشبكات انتقال الأشخاص والمعرفة والوظائف في العصور الوسطى (Renan, 1878, pp. 294-298).

ومع أن قراءة رينان لا تخلو من أحكام مرتبطة بالتصورات الفكرية السائدة في الاستشراق الأوروبي في القرن التاسع عشر، فإنه لم ينظر إلى ابن بطوطة نظرة احتقار معرفي؛ فقد انتقد ميله إلى تصديق المعجزات وبعض صور العجائبي، لكنه نسب إليه في الوقت نفسه قدراً كبيراً من الاستقامة والعقل، ورأى أن وصفه لمكة وشعائر الحج يجعل القارئ قريباً من الحياة الدينية الإسلامية كما عاشها المسلم في القرن الرابع عشر (Renan, 1878, pp. 299-303). وهنا تظهر إحدى أهم وظائف الرحلة عند المستشرق الفرنسي: ليست أخبار العقائد والشعائر مجرد إضافات أدبية، وإنما مادة لدراسة الممارسة الدينية كما بدت لمشارك فيها.

ويتضح هذا الاستخدام بصورة أكثر مباشرة لدى المستشرق الفرنسي برنار كارا دو فو، الذي رجع إلى رحلة ابن بطوطة في دراسته للإسلام. وعندما أراد إعادة بناء مشهد الحج ومناسك مكة، وصف ابن بطوطة وابن جبير بأنهما من الرحالة المسلمين ذوي الذهن الدقيق والملاحظة التي تبلغ أحياناً حد العناية بالتفاصيل، وجعل روايتهما من مصادره الأساسية لفهم ممارسة الحج (Carra de Vaux, 1909, pp. 113-114). وهذا الاستخدام له دلالة مهمة؛ إذ يعني أن الرحلة لم تبق عند المستشرقين الفرنسيين موضوعاً للدراسة في ذاتها، بل أصبحت مصدراً يستخرج منه الباحث معلومات عن الإسلام وتاريخه وشعائره ومجتمعه.

أما فيما يتعلق بالقيمة الجغرافية، فقد كان نشر أجزاء الرحلة وترجمتها قبل اكتمال الطبعة الفرنسية نفسها شاهداً عملياً على أهميتها. فقد اختار المستشرقون أقساماً تتناول السودان وشمال أفريقيا ومصر وفارس وآسيا الوسطى والأرخبيل الآسيوي، وهو ما يدل على أن نص ابن بطوطة كان يُعامل بوصفه وثيقة جغرافية قابلة للاستخدام في تحديد المدن والمسالك والأقاليم ومقارنتها بالمصادر الأخرى. كما أن دفرمري وسانغينيتي خصصا في مقدمتهما مواضع لمقارنة وصف ابن بطوطة للإسكندرية والقاهرة وآسيا الصغرى وأفريقيا الشرقية بمصادر مستقلة، وذهبا إلى أن وصف المدن الكبرى في رحلته يشتمل على معلومات تاريخية وجغرافية متنوعة ذات أهمية خاصة، لأن بعض الفترات التي سجلها لا تزال قليلة المصادر (Defrémery & Sanguinetti, 1853, pp. xxvii-xxxii).

لكن تقديرهم للمادة الجغرافية لم يكن مطلقاً؛ فقد أقر المحققان بأن ابن بطوطة يخلط أحياناً في ترتيب المسالك وفي التواريخ، وأن روايته تحتاج إلى التصحيح والتفسير عند مقارنة الأماكن والأسماء والطرق. وهو أمر مهم منهجياً؛ لأن المستشرق المحقق كان يفرق بين القيمة الجغرافية للمصدر وبين الدقة الجغرافية لكل جزئية فيه. فالخطأ في اسم موضع أو ترتيب محطة لا يؤدي، في هذا المنهج، إلى إسقاط الرحلة كلها، وإنما يدعو إلى الاستعانة بالمخطوطات والخرائط والنصوص الموازية لإعادة بناء المسار الأقرب إلى الصواب (Defrémery & Sanguinetti, 1853, pp. xxvii-xxix).

ويعطي ج.-هـ. بوسكيه مثالاً واضحاً على انتقال الرحلة من حقل التحقيق إلى الاستخدام في دراسة المؤسسات. ففي بحثه Ibn Battūta et les institutions musulmanes صرح بأن دراسة نص ابن بطوطة في علاقته بمؤسسات الإسلام لها قيمة مزدوجة؛ فمعرفة المؤسسات تساعد على فهم نص الرحالة، وفي الاتجاه المقابل تساعد ملاحظات ابن بطوطة على معرفة هذه المؤسسات من جانب مهم هو جانبها الاجتماعي أو السوسيولوجي. وميّز بوسكيه بوضوح بين كتب الفقه التي تخبر الباحث عما ينبغي أن تكون عليه الأحكام، وبين رواية الرحالة التي تظهر كيف تبدو المؤسسات في الواقع الاجتماعي الذي عاينه (Bousquet, 196)6, pp. 81-83. وهذه النظرة تمنح الرحلة قيمة لا تستطيع كتب التشريع وحدها أن تقدمها، لأنها تقرب الباحث من التطبيق والممارسة والحياة اليومية.

وتتأكد القيمة الاجتماعية والأنثروبولوجية في دراسة جوزيف شلهود Joseph Chelhod التي حملت عنواناً دالاً هو Ibn Battuta, ethnologue. فقد أعلن أن هدفه لفت انتباه الباحثين في العلوم الإنسانية إلى الأهمية الإثنولوجية لعمل ابن بطوطة، وخاصة ما حفظه عن المرأة والأسرة في المجتمع الإسلامي في القرن الرابع عشر. وبعد إخضاع النص لمسألة المصداقية، خلص إلى أن درجتها تسمح باستخدام مادته في دراسة النظام الأبوي، وآثار الانتساب الأمومي، والتحول بين الأنظمة القرابية، وطقوس الزواج (Chelhod, 1978, pp. 5-24). فهنا لم تعد الرحلة مجرد سجل جغرافي أو تاريخ سياسي، وإنما أصبحت وثيقة في تاريخ البنى الاجتماعية والأسرة والعادات.

ويندرج في الاتجاه نفسه، وإن من زاوية دينية، بحث أندريه ميكيل L'Islam d'Ibn Battûta. فقد انطلق من نص الرحلة لإعادة بناء جوانب من إسلام ابن بطوطة كما مورس وعُيش: انتماؤه المالكي، وصلته بالعلماء، وزيارات الأضرحة،

وحضوره في البيئات الصوفية، وما تكشفه تحركاته من مكانة العلماء والفقهاء داخل المجتمعات الإسلامية. ولم يستخدم ميكيل الرحلة كتاباً في العقيدة أو الفقه، بل شهادة على الدين بوصفه ممارسة وموقفاً من الحياة، وهو ما يبرهن على القيمة الحضارية للنص في دراسة الثقافة الدينية في القرن الرابع عشر (Miquel, 1978, pp. 75-83).

وتقدم فرانسواز ميشو مثالاً آخر على إمكان استثمار الرحلة في دراسة علاقة العالم الإسلامي بالمجتمعات غير الإسلامية. ففي بحثها عن زيارة ابن بطوطة للقسطنطينية رأت أن نصه يقدم «رؤية جديدة» للعاصمة البيزنطية قبل سقوطها بأكثر من قرن، وأن قيمة هذه الرؤية ترجع إلى صدورها عن مسلم خرج، ولو مؤقتاً، من المجال الإسلامي وشاهد مدينة مسيحية كبرى. ورغم تنبيهها إلى صعوبة تحديد مقدار تدخل ابن جزي وإلى مشكلات بعض تفاصيل النص والترجمة، فإنها تعاملت مع الرواية باعتبارها وثيقة قابلة للتحليل التاريخي وليست مادة مرفوضة من حيث الأصل (Micheau, 1987, pp. 55-65).

وهكذا يتبين أن جوانب التقدير الفرنسي لرحلة ابن بطوطة لم تقتصر على وصفها بأنها رحلة طويلة أو مثيرة، بل ظهرت عملياً في توظيفها لدراسة الجغرافيا التاريخية، والمدن والمسالك، والحياة السياسية، والمؤسسات الاجتماعية، والأسرة، والتدين، والتصوف، والحج، والعلاقات بين المسلمين وغيرهم. وهذا الاستخدام المتعدد يؤكد أن الرحلة استقرت في جانب مهم من الدراسات الفرنسية بوصفها أحد مصادر تاريخ العالم الإسلامي في العصر الوسيط، وإن كان مصدراً يحتاج، كغيره من المصادر، إلى النقد والمقارنة.

**المطلب الثاني: الموقف النقدي الفرنسي من صدقية رحلة ابن بطوطة وأخباره**

لم تكن المكانة العلمية التي مُنحت لرحلة ابن بطوطة مانعاً من تعرضها لنقد مبكر، بل إن عملية التحقيق الفرنسية نفسها أسست لعدد من الأسئلة المتعلقة بالمصداقية. وقد لخص دفرمري وسانغينيتي الإشكال في عاملين رئيسين: طبيعة تحرير الرحلة بعد انقضاء سنوات طويلة على بعض الأسفار، وما تعرضت له مذكرات الرحالة من ضياع. ولذلك قررا أنه ينبغي توقع وجود أكثر من موضع غير دقيق في النص، لكنهما لم يستنتجا من ذلك أن الرحلة ملفقة، بل جعلا معيار الاختبار هو مقارنة الخبر بمصادر مستقلة (Defrémery & Sanguinetti, 1853, pp. ix-x).

وهذه نقطة مركزية في فهم الموقف النقدي؛ فالشك عند عدد من المستشرقين لم يبدأ بسؤال: «هل ابن بطوطة صادق أم كاذب؟»، وإنما بسؤال أكثر تركيباً: أي الأخبار تمثل مشاهدة مباشرة، وأيها وصل إليه بالسماع، وما الذي تغير أثناء الذاكرة والتحرير والنسخ؟. وقد وعى دفرمري وسانغينيتي أن النص يتضمن مواد من أنواع مختلفة وأنه يحتاج إلى تعليق وتصحيح، بل أشارا إلى أن ابن بطوطة يخلط أحياناً ترتيب المسارات والأزمنة، وأن طبيعة النص تفرض الاستعانة بالمقارنة التاريخية والجغرافية (Defrémery & Sanguinetti, 1853, pp. xxvii-xxix).

وكان الميل إلى العجائب أحد المواضع التي أثارت انتباه الباحثين. فقد نقل دفرمري وسانغينيتي عن دي سلين نقده ميل ابن بطوطة إلى العجيب والاستفادة من «امتياز القادم من بعيد»، ثم أقرّا بأن الرحالة كان سريع التصديق أحياناً ويرى المعجزة في وقائع يمكن تفسيرها تفسيراً طبيعياً، لكنهما عادا ففصلا هذا الجانب عن قضية الأمانة الشخصية، فقررا أن صدقه في نظرهما فوق الشبهة (Defrémery & Sanguinetti, 1853, pp. viii-ix). وهذا الفصل بين السذاجة أو التصديق بالعجيب وبين التعمد في اختلاق الرحلة يمثل مفتاحاً لفهم الاتجاه التحقيقي الفرنسي المبكر.

إلا أن مستوى النقد تغير بصورة واضحة مع غابرييل فيران، المتخصص في نصوص الجغرافيا والرحلات المتعلقة بالمحيط الهندي والشرق الأقصى. ففي القسم الذي خصصه لابن بطوطة في كتابه Relations de voyages et textes géographiques arabes, persans et turks relatifs à l'Extrême-Orient لم يكتف بملاحظة أخطاء جزئية، وإنما أخضع رواية جنوب شرق آسيا والصين لتحليل جغرافي ومساري صارم، وقارن أسماء الأماكن والطرق والمسافات بما كان معروفاً من جغرافية الصين والملاحة في المنطقة (Ferrand, 1914, Vol. 2, pp. 426-458). وتثبت الفهارس الأكاديمية أن دراسة فيران لابن بطوطة تقع في هذا الجزء من المجلد الثاني، وهو ما يسمح بالرجوع إلى نصه مباشرة بدلاً من الاكتفاء بالنقول الثانوية عنه.

تركز أحد اعتراضات فيران على الطريق الذي نسبه ابن بطوطة إلى نفسه داخل الصين؛ إذ رأى أن الانتقال الموصوف بين زيتون/تشيوانتشو والمدن الجنوبية ثم خان بالق لا ينسجم مع الواقع الجغرافي لشبكات الأنهار والمسافات. ومن خلال إعادة تركيب المسار، وصل إلى وصف جانب منه بأنه مسار غير قابل للتحقيق جغرافياً، ورأى أن تعاقب المحطات كما ورد في النص لا يمكن قبوله بمجرد الثقة بالراوي. ولم يكن معياره هنا لغوياً أو أدبياً، بل كان قائماً على الجغرافيا المقارنة: مواضع الموانئ، واتجاه الأنهار، والمسافات، والوقت المفترض للانتقال، ومقارنة ذلك بما تقدمه المصادر الجغرافية الأخرى (Ferrand, 1914, Vol. 2, pp. 429-433). وقد وصف البحث الأكاديمي اللاحق موقف فيران بأنه من أشد المواقف الغربية تشككاً في مسار ابن بطوطة إلى الصين وجنوب شرقي آسيا.

كما أثارت رواية طوالسي والأميرة أوردوجا عند فيران قدراً أكبر من الشك؛ لما تتضمنه من عناصر رأى أنها أقرب إلى البناء القصصي منها إلى الوصف الجغرافي القابل للتحقق، ومنها صورة الأميرة المحاربة وإتقانها لغات لم يجد لها تفسيراً مقنعاً في البيئة التي وضعها فيها ابن بطوطة. واجتماع هذه الصعوبات عنده لم يعد مجرد خطأ في اسم موضع، وإنما صار قرينة على مشكلة أوسع في كامل القسم المتعلق بالهند الصينية والصين.

ولهذا جاء استنتاج فيران شديداً؛ إذ رأى أن المعطيات تسمح بأحد احتمالين: إما أن ابن بطوطة لم يذهب إلى الهند الصينية والصين وأنشأ رواية الرحلة إليهما من مواد مختلفة، وإما أن ابن جزي أو ناسخي المخطوطات أحدثوا في النص من التغيير ما أفقد هذا الجزء دقته. وترد هذه الخلاصة في الصفحات 432–433 من المجلد الثاني

(Ferrand, 1914, Vol. 2, pp. 432-433). والنقطة الدقيقة هنا أن فيران، على شدة حكمه، أبقى احتمال فساد النص ونقله إلى جانب احتمال اختلاق الرحلة؛ أي إنه لم يجعل ابن بطوطة وحده مسؤولاً بالضرورة عن جميع التناقضات.

ومن ثم ينبغي الحذر من صياغة موقف فيران على أنه تكذيب لرحلة ابن بطوطة كلها. فموضوع تحليله الصارم هو القسم المتعلق بجنوب شرق آسيا والصين، ولم يقدم في هذا الموضع حكماً يؤدي إلى إسقاط ما رواه ابن بطوطة عن مصر أو الحجاز أو الهند أو أفريقيا مثلاً. بل إن كتاب فيران نفسه يقوم على جمع نصوص الرحالة والجغرافيين المسلمين والاستفادة منها في معرفة الشرق الأقصى، مما يعني أن نقده موجه إلى درجة صدقية جزء محدد من المسار أكثر مما هو رفض لأدب الرحلة العربي أو لرواية ابن بطوطة برمتها. وهذه نتيجة تتفق مع ما أظهرته دراسة منصور من أن أشد النقد انصب على الأسفار البعيدة والحكايات التي اشتملت على عناصر عجائبية. (منصور، 2011، ص ص. 17–18).

ولا ينبغي كذلك اختزال النقد الفرنسي في فيران. فقد كان إرنست رينان، قبل ذلك بعقود، قد ميز بين ما رآه من استقامة الرحالة وبين ضعف نقده للعجائب، ولاحظ أنه ليس من أدق المراقبين في كل المواضع، مع إقراره بثراء رحلته وقيمتها في فهم الحياة الإسلامية (Renan, 1878, pp. 299-303). كما أن دفرمري وسانغينيتي أشارا إلى أخطاء في التسلسل والتأريخ، وأقرا بالحاجة إلى التصحيح، بينما حافظا على ثقتهما العامة في صدق الرجل. وهكذا تظهر داخل المدرسة الفرنسية نفسها درجات مختلفة من النقد تبدأ بالمراجعة الجزئية وتنتهي، عند فيران في رحلة الصين، إلى الشك في وقوع السفر ذاته.

وفي الدراسات الفرنسية اللاحقة ظهرت محاولات أكثر تمييزاً بين مراحل الرحلة الصينية. ومن أبرزها ما قرره ستيفان يراسيموس في مقدماته وتعليقاته على إعادة نشر الترجمة الفرنسية؛ إذ لم ير سبباً كافياً للشك في وصول ابن بطوطة إلى زيتون/تشيوانتشو Quanzhou، واستند في ذلك إلى إمكان التحقق من بعض الأشخاص الذين يذكرهم النص، ومنهم الشيخ برهان الدين، فضلاً عن توافق الأصل الفارسي لبعض الشخصيات التي قابلها مع وجود جالية إيرانية قوية في الميناء. لكنه رأى أن المشكلات تزداد بعد تشيوانتشو، أي إنه قسم الرواية إلى طبقات من حيث درجة القبول بدلاً من الحكم عليها كلها بالصدق أو الوضع (Yerasimos, 1982, p. 38).

وهذه القراءة أكثر قرباً من منهج الدراسات الحديثة؛ فهي لا تنفي المشكلات الحقيقية التي رصدها فيران، لكنها لا ترى أن وجودها يستلزم إسقاط كامل مرحلة الصين. وبهذا انتقل النقاش من السؤال الثنائي «زار الصين أو لم يزرها» إلى أسئلة أكثر دقة: إلى أي مدينة وصل؟ أي الطرق سلك بالفعل؟ أي المعلومات شاهدها بنفسه؟ وأيها تلقاها من تجار أو أدلاء أو علماء مسلمين؟ وأي عناصر تأثرت بذاكرته أو بصياغة ابن جزي؟

ويفيد كتاب عبد الله العلوي في دعم ضرورة هذا التفريق؛ إذ يذكر أن قسماً من الاعتراضات نشأ من قراءة بعض الأوصاف خارج موضعها الجغرافي، ويشدد على أن اختلاف الثقافة واللغة وبعد الصين، إلى جانب تاريخ تحرير النص، كلها عوامل ينبغي مراعاتها عند تقويم أخبار المرحلة الآسيوية (العلوي، 2023، ص ص. 7–10). غير أن هذه الدراسة الحديثة لا تلغي حجج فيران تلقائياً، وإنما تُستخدم لموازنتها واختبارها في ضوء النصوص والمصادر الصينية، وهو ما ينسجم مع المنهج النقدي المقارن للدراسة الحالية.

ويظهر من ذلك أن قضية المشاهدة المباشرة والرواية المنقولة هي أصل كثير من الجدل. فالرحالة الوسيط لم يكن يلتزم الاصطلاحات الحديثة في التمييز دائماً بين «شاهدت» و«بلغني»، وإن كان ابن بطوطة يصرح في مواضع كثيرة بمصدر خبره. ولذلك فإن وجود معلومات عن مناطق لم يدخلها بنفسه لا ينبغي أن يعد وحده دليلاً على التزييف؛ وإنما تصبح المشكلة حين يقدم الخبر في صورة مشاهدة شخصية ويصطدم بمعطيات جغرافية أو تاريخية مستقلة. وهنا تحديداً اختلفت شدة الأحكام بين الباحثين.

وعلى هذا الأساس يمكن القول إن الموقف النقدي الفرنسي من صدقية الرحلة كان في معظمه نقداً انتقائياً لا إسقاطاً كلياً للمصدر. فقد قبل دفرمري وسانغينيتي معظم الرواية بعد الاختبار المقارن، مع إثبات مواضع للخطأ؛ وانتقد رينان النزعة العجائبية مع إقراره باستقامة الرحالة؛ بينما بلغ فيران الحد الأقصى من الشك في قسم الهند الصينية والصين؛ ثم عادت القراءات اللاحقة إلى تفكيك هذا الحكم وإعادة توزيع درجات الثقة بين أجزاء المسار.

**المطلب الثالث: الاتفاق والاختلاف بين المستشرقين الفرنسيين في تقويم رحلة ابن بطوطة**

تكشف المقارنة بين المواقف السابقة أن الانتماء إلى البيئة العلمية الفرنسية لم ينتج حكماً واحداً على الرحلة؛ فقد اختلفت النتائج باختلاف زمن الباحث وتخصصه وطبيعة السؤال الذي وجهه إلى النص. ومع ذلك، اتفقت أغلب القراءات على أهمية الرحلة بوصفها وثيقة تستحق النشر والفحص والاستثمار، وهو ما يظهر في توظيفها لدى دفرمري ورينان وكارا دو فو، ثم في الدراسات المؤسساتية والاجتماعية والدينية اللاحقة (Renan, 1878, pp. 291-303; Carra de Vaux, 1909, pp. 113-114; Bousquet, 1966, pp. 81-106; Ch)-elhod, 1978, pp. 5-24; Miquel, 1978, pp. 75-83).

ويتركز الخلاف الحقيقي في درجة الثقة في الخبر الجزئي. فدفرمري وسانغينيتي يمثّلان موقفاً يقوم على الثقة النقدية: الأصل عندهما قبول القيمة العامة للرواية، مع عزل الأخطاء وتصحيحها بالمقارنة. أما فيران فرفع معيار الإثبات في أخبار الشرق الأقصى، وجعل اتساق المسار الجغرافي والمسافات والمواضع عنصراً حاسماً في الحكم، وهو ما قاده إلى التشكيك في وقوع جزء من الرحلة كما ورد في النص (Defrémery & Sanguinetti, 1853, pp. ix-x; Ferrand, 1914, Vol. 2, pp. 429-433).

ويرتبط هذا الاختلاف أيضاً بطبيعة التخصص. فالمحقق الفيلولوجي يدرك إمكان نشوء الخطأ من النسخ أو التحرير أو القراءة، فيميل إلى تحديد موضع الخلل قبل نسبته إلى المؤلف؛ بينما يختبر الجغرافي إمكان الطريق والمسافة وتحديد المكان.

أما الباحث في المؤسسات أو الاجتماع أو الدين فيستطيع الإفادة من عشرات الملاحظات التي لا تتوقف قيمتها كلها على حسم خلاف حول محطة جغرافية بعيدة. ولهذا استخدم بوسكيه الرحلة في دراسة الممارسة المؤسساتية، وشلهود في تحليل البنى الاجتماعية، وميكيل في دراسة التدين، وميشو في قراءة القسطنطينية مع إبقاء التحفظ النقدي قائماً (Bousquet, 1966; Chelhod, 1978; Miquel, 1978; Micheau, 1987).

ويمكن لذلك تمييز ثلاثة اتجاهات إجرائية لا مدارس مغلقة: اتجاه تحقيقي-توثيقي مثّله مشروع دفرمري وسانغينيتي؛ واتجاه جغرافي-نقدي صارم يتجلى بوضوح عند فيران في رحلة الصين؛ واتجاه نقدي-تركيبي في الدراسات اللاحقة يجزئ الرواية بحسب نوع الخبر وموضعه ووظيفته. ويظهر هذا الاتجاه الأخير عند يراسيموس في قبوله إمكان وصول ابن بطوطة إلى تشيوانتشو مع إبقاء الشك في المراحل التالية، وعند ميشو في الإفادة من رواية القسطنطينية مع مناقشة مشكلات التحرير والترجمة (Yerasimos, 1982, Vol. 3, p. 38; Micheau, 1987, pp. 55-65).

كما تكشف المقارنة ضرورة الفصل بين نقد المصدر والحكم الأخلاقي على صاحبه. فقد جمع رينان بين نقد قابلية ابن بطوطة لتصديق بعض العجائب وبين الإشادة باستقامته، ولم يجعل دفرمري وسانغينيتي وجود الأخطاء دليلاً على الاختلاق. وحتى فيران، على شدة موقفه، أبقى احتمال فساد النص أو اضطرابه إلى جانب احتمال عدم وقوع بعض مراحل السفر. ومن ثم فإن التعبير عن الموقف الفرنسي بصيغة «تكذيب ابن بطوطة» بإطلاق لا يعكس ما تقوله المصادر الأصلية.

وعليه، فإن خلاصة المبحث الثاني ليست وجود موقف فرنسي موحد، بل وجود طيف من المواقف يلتقي في الاعتراف بقيمة الرحلة ويختلف في وزن الأدلة وفي درجة الثقة ببعض أجزائها. وهذه النتيجة تمهد للمبحث الثالث، الذي ينتقل من عرض الآراء إلى فحص قوتها المنهجية وأثر التحقيق والترجمة في صياغتها.

## المبحث الثالث: النقد التاريخي لآراء المستشرقين الفرنسيين وتقويمها

لا تكتمل دراسة آراء المستشرقين الفرنسيين في رحلة ابن بطوطة بمجرد رصد مواقفهم وتصنيفها بين اتجاه يقدّر قيمتها وآخر يتحفظ إزاء بعض أخبارها؛ لأن القيمة العلمية الحقيقية لهذه المواقف تتوقف على فحص الأسس التي بُنيت عليها، وطبيعة المصادر التي استند إليها أصحابها، ومدى قدرتهم على الفصل بين كلام ابن بطوطة والنص الذي صاغه ابن جزي، ثم بين النص العربي وبين الصورة التي أنتجتها ترجمته الفرنسية. ويكتسب هذا الفحص أهمية إضافية من أن طبعة شارل دفرمري وبنيامين رافائيل سانغينيتي لم تكن مجرد ترجمة عابرة، وإنما أصبحت من أكثر صور الرحلة انتشاراً وتأثيراً في الدراسات الأوروبية، بحيث انتقلت بعض قراءاتها ومصطلحاتها إلى أجيال لاحقة من الباحثين. وتشير الدراسات الحديثة إلى أن هذه الطبعة غدت بمثابة editio princeps أو النص المعياري الذي استندت إليه ترجمات ودراسات متعددة (Tresso, 2023, pp. 56-58).

ومن هنا يقوم النقد التاريخي في هذا المبحث على مستويين متداخلين: أولهما تقويم المنهج الذي اتبعه المستشرقون أنفسهم في إثبات أخبار ابن بطوطة أو الاعتراض عليها، وثانيهما اختبار ما إذا كانت بعض الأحكام التي استقرت في الدراسات الغربية ناتجة من نص الرحلة ذاته أم من طريقة تحقيقه وترجمته وتأويله. وهذه المقاربة تنسجم مع منهج الدراسة الذي يقوم على الفصل بين النص الأصلي والتفسير الناتج عن الترجمة أو التعليق الاستشراقي، وعدم التعامل مع الآراء الفرنسية بوصفها كتلة واحدة متجانسة.

### المطلب الأول: الأسس العلمية والمنهجية التي قامت عليها آراء المستشرقين الفرنسيين

تكشف مراجعة الطبعة الفرنسية الأولى أن دفرمري وسانغينيتي اعتمدا أساساً على النقد النصي والمقابلة بين المخطوطات. فقد كان بين أيديهما عدد من نسخ الرحلة المحفوظة في باريس، واختارا إحدى المخطوطات أساساً لقسم من النص، مع الرجوع إلى نسخ أخرى عندما بدت قراءاتها أصح أو أكمل. وهما يصرحان في مقدمة الطبعة بأنهما قابلا المخطوطات بعناية، ولم يدخلا القراءات المختلفة إلى المتن إلا إذا وجدا فيها تصحيحاً أو استكمالاً للنص، وأن ضيق النظام الطباعي حال دون إثبات جميع الفروق التي جمعاها، فوُضعت أهم الاختلافات في قسم مستقل بعنوان Variantes et notes (Defrémery & Sanguinetti, 1853, pp. xx-xxvi). وهذا المنهج يمثل أحد أبرز عناصر القوة العلمية في عملهما، لأنه نقل قراءة الرحلة من الاعتماد على نسخة منفردة أو مختصر متأخر إلى المقارنة بين شواهد مخطوطة متعددة.

غير أن القيمة المنهجية لهذا العمل لا تعني أن النص الذي أقامه المحققان يمكن اعتباره مطابقاً دون وسيط لما قاله ابن بطوطة أثناء أسفاره؛ فالمشكلة أسبق من مرحلة النسخ الفرنسية نفسها. إن النص الذي وصل إلى دفرمري وسانغينيتي مر بعملية تحرير قام بها محمد بن جزي، كما أن مقدار تدخله في ترتيب المادة واختصارها وإضافة بعض العناصر لا يمكن تحديده تحديداً قاطعاً. وقد نبهت فرانسواز ميشو إلى صعوبة قياس مقدار التعديلات والاقتباسات التي ترجع إلى ابن جزي في الصورة النهائية للرحلة (Micheau, 1987, p. 55). كما أن العبارة التي تنسب إلى ابن جزي في خاتمة العمل، ومضمونها أنه انتهى من «تلخيص تقييد» ابن بطوطة، تجعل تصور النص باعتباره مجرد إملاء شفوي خالص من الذاكرة بحاجة إلى قدر من التحفظ. وقد أثار عبد الله العلوي هذه المسألة أيضاً، مشيراً إلى أن عبارة ابن جزي توحي بوجود مادة مكتوبة أو «تقييد» سابق جرى تلخيصه (العلوي، 2023، ص. 8).

وتكتسب هذه المسألة أهمية خاصة لأن دفرمري وسانغينيتي فسرا بعض اضطرابات الرحلة بطول الفترة الفاصلة بين السفر وبين رواية الذكريات من الذاكرة، وأشارا إلى أن مثل هذا الظرف يمكن أن يؤدي إلى قلب ترتيب بعض المسالك وخلط الأزمنة، وهو ما يستوجب في نظرهما الشرح والتصحيح (Defrémery & Sanguinetti, 1853, pp. xxvii-xxx). ومن ثم فإن جزءاً من أحكامهما النقدية قام على تصور معين لكيفية إنتاج النص؛ وكلما تغير فهمنا الحديث للعلاقة بين ابن بطوطة وابن جزي أصبح من الضروري إعادة النظر في مقدار ما يمكن تفسيره بالذاكرة وحدها.

أما المعيار الثاني الذي اعتمده المحققان فهو المقارنة الخارجية. فلم يكتفيا بقراءة الرواية من داخلها، وإنما قارنا أخبار ابن بطوطة بما توفر لديهما من مؤلفات جغرافية وتاريخية وشهادات مستقلة. ويظهر ذلك بوضوح في الطريقة التي عرضا بها وصف مقديشو وكلوة؛ فقد استعانا بملاحظات الضابط والبحار الفرنسي Guillaume، الذي عرف سواحل أفريقيا الشرقية، وبمادة مستقلة عن تاريخ المنطقة، وانتهيا إلى أن الاتفاق بين مصادر مختلفة الأصل يعضد عدداً من روايات ابن بطوطة. ومن هنا لم يكن معيار الصدق لديهما خلو النص من الغرائب، وإنما إمكان تعضيد الخبر من مصدر مستقل (Defrémery & Sanguinetti, 1853, pp. viii-xii).

وهذا الجانب يجعل منهجهما قريباً، في عدد من المواضع، من مبادئ النقد التاريخي الحديثة؛ إذ يُفحص الخبر بالمقارنة ولا يُقبل بمجرد صدوره عن شاهد عيان. ولكنه يكشف في الوقت نفسه حدود الأدوات التي كانت متاحة في القرن التاسع عشر؛ فالمعرفة الأوروبية بأقاليم من آسيا وأفريقيا كانت متفاوتة، وبعض أسماء المواضع التي نقلها ابن بطوطة بلغات غير عربية كانت لا تزال موضع تخمين. ومن هنا فإن عدم قدرة الباحث في ذلك الوقت على مطابقة اسم أو طريق لم يكن بالضرورة برهاناً قاطعاً على فساد الرواية، كما أن اكتشاف مصادر صينية أو فارسية أو نتائج أثرية لاحقة استطاع أن يغير الحكم على بعض المواضع التي كانت غامضة.

وقد بلغ منهج المقارنة الجغرافية ذروته عند غابرييل فيران. فبدلاً من التركيز على المخطوطات، اختبر فيران رحلة الصين من خلال مطابقة أسماء المدن والأنهار والمسافات والاتجاهات والمسالك البحرية والبرية بما جمعه من النصوص العربية والفارسية والتركية والمعلومات الجغرافية عن الشرق الأقصى. ولهذا اتخذ اعتراضه على المرحلة الصينية شكلاً أكثر صرامة؛ إذ رأى أن بعض الانتقالات التي يصفها النص، ولا سيما الانتقال النهري بين مواضع معينة في الصين، غير قابلة للتوفيق مع الجغرافيا المعروفة، فانتقل من إثبات استحالة بعض المسالك كما وصفها النص إلى طرح احتمال أن ابن بطوطة لم يصل أصلاً إلى الهند الصينية والصين، أو أن هذا الجزء تعرض لتغيير واسع أثناء التحرير أو النسخ (Ferrand, 1914, Vol. 2, pp. 426-458، ولا سيما pp. 432-433) .

ومن الناحية العلمية، تظل ملاحظة فيران المتعلقة بتعارض بعض المسالك مع الجغرافيا ملاحظة ذات وزن، وقد أكدت بحوث لاحقة أن الطريق الموصوف داخل الصين يشتمل بالفعل على مشكلات حقيقية. غير أن المشكلة المنهجية تظهر عند الانتقال من إثبات اضطراب المسار إلى نفي وقوع الرحلة كلها؛ فعدم إمكان إعادة رسم طريق كامل اعتماداً على النص الموجود لا يثبت بمفرده أن الرحالة لم يدخل البلاد، لأن الاحتمالات الأخرى تشمل اضطراب الذاكرة، أو نقل أخبار عن الغير، أو خلط أسماء الأماكن، أو تدخل ابن جزي، أو فساداً نصياً وقع أثناء انتقال المخطوط. ومن هنا يمكن القول إن قوة منهج فيران تظهر في مرحلة تشخيص التناقض الجغرافي، بينما يصبح استنتاجه أضعف كلما توسع من نقد الجزئية إلى نفي التجربة الأصلية.

ويؤكد هذا التمييز ما توصل إليه فرانسوا-كزافييه فوفيل وبرتران هيرش في إعادة قراءتهما النقدية لمسارات ابن بطوطة. فقد لاحظا أن الدراسات السابقة كثيراً ما جعلت التعرف إلى الأسماء الجغرافية أداة لإثبات صدق الرحالة أو تكذيبه، في حين أن الرحلة ينبغي أن تقرأ كذلك باعتبارها بناءً سردياً وتمثيلاً ذهنياً للعالم. وأظهرت دراستهما لمسارات الصين وأفريقيا الشرقية ومالي أن التناقضات الجغرافية لا ينبغي أن تُقرأ دائماً باعتبارها دليلاً مباشراً على سوء النية، وأن على الباحث أن يميز بين الواقع المادي للرحلة وبين الطريقة التي أعيد بها تنظيم هذا الواقع داخل نص له برنامج جغرافي وسردي خاص (Fauvelle-Aymar & Hirsch, 2003, pp. 75-78, 88-94).

ويتصل بذلك موقف المستشرقين من المشاهدة المباشرة والخبر المنقول. ففي نص ابن بطوطة أخبار كثيرة يصرح فيها بالسماع من التجار أو العلماء أو القضاة، وأخبار أخرى يقدمها في سياق المشاهدة. ومن الخطأ المنهجي وضع الصنفين في مرتبة واحدة. وتوضح دراسة تريسو الحديثة أن الرحلة لا يمكن اليوم عدها «يوميات شخصية كاملة» بالمعنى الحديث، بل هي أقرب إلى عمل مركب يجمع التجربة الشخصية لابن بطوطة، ومعارف ابن جزي، والمعلومات الشفوية والمكتوبة التي تلقياها من الآخرين، ومواد مستمدة من مؤلفات سابقة (Tresso, 2023, pp. 68-70).

ومن هذه الزاوية يصبح السؤال الصحيح ليس: «هل كل ما في الرحلة مشاهدة؟»، وإنما: ما نوع المصدر الذي يقف خلف كل خبر؟ فإذا صرح ابن بطوطة بالسماع، وجاء خبره متفقاً مع مصدر مستقل، فإن قيمته لا تزول لمجرد أنه لم يشاهده بنفسه؛ لأن المؤرخ نفسه يعتمد أحياناً على الأخبار الموثوقة المنقولة. أما إذا قُدم الحدث في صورة تجربة شخصية واصطدم بالتأريخ أو الجغرافيا أو المصادر المعاصرة، فإن درجة الاعتماد عليه تنخفض ويصبح النقد أشد ضرورة.

ومن الضروري كذلك وضع المناهج السابقة في سياق الاستشراق الفرنسي في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. فقد كانت الفيلولوجيا وتحقيق النصوص والتصنيف اللغوي والجغرافيا التاريخية من الأدوات الأساسية في دراسة التراث العربي. وقد أفاد نص ابن بطوطة من هذا الاتجاه، لأنه دفع المستشرقين إلى جمع مخطوطاته ومقابلتها وفهرسة الأعلام والمواضع ومحاولة تحديدها. وفي الوقت نفسه ارتبط توفر بعض المخطوطات في فرنسا بسياق سياسي استعماري واضح؛ إذ يذكر دفرمري وسانغينيتي بأنفسهما أن احتلال الجزائر والاستيلاء على مكتبات قسنطينة أسهما في وصول عدد من النسخ إلى المؤسسات الفرنسية (Defrémery & Sanguinetti, 1853, pp. i-iii).

إلا أن وجود هذا السياق الاستعماري لا يكفي، من الناحية المنهجية، للحكم مسبقاً بأن كل نتيجة علمية خرجت من تلك المدرسة كانت نتيجة استعمارية أو متحيزة؛ فالسياق يفسر شروط وصول المادة إلى الباحث والمؤسسات التي احتضنتها، لكنه لا يغني عن فحص كل حجة على حدة. ولذلك ينبغي التمييز بين سياق إنتاج المعرفة وبين صلاحية الدليل الذي يستخدمه الباحث. فإذا أثبتت مقارنة المخطوطات قراءة صحيحة أو أكدت وثيقة مستقلة خبراً، فلا يسقط ذلك لمجرد أن المؤسسة التي حفظت

المخطوط كانت جزءاً من نظام استعماري. وفي المقابل، فإن الحكم الذي يقوم على تصورات عامة عن الشرق أو على تطبيق غير نقدي لمقاييس جغرافية حديثة على بناء رحلي وسيط يظل محتاجاً إلى المراجعة.

وعليه، يمكن القول إن الأسس المنهجية لدى المستشرقين الفرنسيين تفاوتت في قوتها. كان النقد المخطوطي والمقارنة بالمصادر المستقلة من أكثر الأدوات ثباتاً، بينما كانت بعض محاولات إعادة بناء الطرق البعيدة أقل يقيناً بسبب قصور المادة المقارنة في زمنها. أما أخطر موضع منهجي فيظهر عندما تتحول الملاحظة الجزئية الصحيحة إلى حكم كلي لا تدعمه الأدلة بالدرجة نفسها؛ وهي المشكلة التي تتجلى بوضوح في بعض الاستنتاجات المتعلقة برحلة الصين.

**المطلب الثاني: أثر التحقيق والترجمة الفرنسية في تشكيل صورة ابن بطوطة ورحلته**

كان نشر الرحلة بالنص العربي مصحوباً بترجمة فرنسية خطوة بالغة الأهمية؛ لأنه أتاح لأول مرة لجمهور واسع من الباحثين الأوروبيين الاطلاع على نص أكثر اكتمالاً من المختصرات التي كانت متداولة سابقاً. غير أن هذه الخطوة ترتبت عليها نتيجة منهجية لا تقل أهمية: فقد أصبحت قراءة عدد كبير من الباحثين لابن بطوطة تمر عبر وسيط فرنسي. وبالتالي لم يعد السؤال متعلقاً بدقة تحقيق النص العربي وحده، بل أيضاً بمدى قدرة اللغة الفرنسية على نقل دلالاته التاريخية والاجتماعية والدينية والمصطلحية.

وقد أدرك دفرمري وسانغينيتي صعوبة هذه المهمة، فأشارا إلى ضعف القواميس المتاحة في تفسير عدد من الألفاظ، وإلى تنوع موضوعات الرحلة بين التاريخ والجغرافيا والطبيعة والعادات، فضلاً عن وجود النثر المسجوع والشعر والأسماء المحلية. كما أقرّا بأن النص يحتاج بطبيعته إلى تعليق يشرح ويصحح المواضع الغامضة، لكن الخطة الطباعية للمشروع لم تسمح لهما بهوامش واسعة أسفل الصفحات؛ لذلك أدرجا بعض الشروح التاريخية والجغرافية ضمن جداول الفروق والملاحظات (Defrémery & Sanguinetti, 1853, pp. xxvii-xxxiv).

وهذا يعني أن الطبعة الفرنسية حملت منذ البداية مستويين متداخلين: النص الذي ينسب إلى ابن بطوطة وابن جزي، وقراءة المحققين لهذا النص. فحين يختار المحقق قراءة من مخطوطة دون أخرى، أو يعين اسماً جغرافياً، أو يضع مقابلاً فرنسياً لمصطلح عربي، أو يفسر خبراً في جدول الملاحظات، فإنه لا ينقل النص فحسب، بل يسهم في توجيه معناه. وهذه حقيقة طبيعية في أعمال التحقيق والترجمة، لكنها تصبح شديدة الأهمية عندما تتحول الطبعة إلى المصدر الأساس الذي يعتمد عليه من لا يقرأ العربية.

وقد نبهت فرانسواز ميشو إلى هذه المشكلة بعبارة واضحة عندما وصفت تحقيق دفرمري وسانغينيتي بأنه موثوق نسبياً من جهة المخطوطات، لكنها وصفت الترجمة نفسها بأنها «غالباً قابلة للنقاش»، وهو حكم ذو دلالة خاصة لأنها استخدمت النص في دراسة زيارة ابن بطوطة إلى القسطنطينية، واضطرت لذلك إلى الانتباه إلى الفروق بين النص والترجمة (Micheau, 1987, p. 55, n. 2).

وتقدم دراسة كلوديا تريسو نموذجاً دقيقاً يبين كيف يستطيع اختيار كلمة واحدة في الترجمة أن يترك أثراً في الكتابة التاريخية اللاحقة. فاللفظ العربي «وباء» (wabāʾ) لا يعني في ذاته دائماً الطاعون، وإنما يدل في أصله على الوباء أو المرض المنتشر، ولا يمكن تحديد نوع المرض إلا من السياق والأعراض والمقارنة بمصادر أخرى. ومع ذلك ترجم دفرمري وسانغينيتي هذا اللفظ في حديث الرحلة عن وباء تلنكانا إلى peste، أي «الطاعون»، بينما ترجماه في موضع وباء مادوراي إلى maladie contagieuse، أي «مرض معدٍ»؛ مع أن اللفظ العربي هو من الحقل الدلالي نفسه (Tresso, 2023, pp. 62-70).

وهذا المثال يكشف أن الترجمة قد تنتقل بالنص من عدم التحديد إلى التحديد. فقول المصدر «وباء» يترك أمام المؤرخ أكثر من احتمال، أما ترجمته إلى peste فتوجه القارئ مباشرة إلى مرض تاريخي محدد. وقد لاحظت تريسو أن بعض الدراسات الحديثة وقعت فعلاً في اضطراب بين الطاعون والكوليرا، وأن بعض هذه الأخطاء تأثر بالترجمات الأوروبية لا بالمصطلحات الأصلية في النصوص العربية والفارسية (Tresso, 2023, pp. 62-71). ولهذا لا يكون الرجوع إلى الترجمة وحدها كافياً في المسائل التي يتوقف الحكم التاريخي فيها على دلالة لفظ بعينه.

وتزداد دلالة المثال عندما نقارنه بلفظ مرض (ḍ)mara الذي ورد في أخبار حملة القراجيل. فالنص العربي يستخدم هنا لفظاً عاماً بمعنى المرض، وقد ترجمه دفرمري وسانغينيتي إلى maladie، في حين نقلته ترجمات أخرى بصيغ تحمل معنى وبائياً أوسع. وتوضح تريسو أن مثل هذه الفروق في المقابلات اللغوية أنتجت عبر الزمن طبقات من التأويل، إلى درجة أن الباحث قد يظن أنه ينقل خبراً صريحاً عن ابن بطوطة بينما يكون بعض التحديد قد أضافه المترجم (Tresso, 2023, pp. 66-71).

ومن هنا تظهر ضرورة التمييز في هذه الدراسة بين أربعة أصوات: ابن بطوطة بوصفه صاحب التجربة، وابن جزي بوصفه محرراً للنص، والمحقق الذي يختار القراءة المخطوطة، والمترجم الذي يحدد المقابل الفرنسي. فإذا أضيف إلى هؤلاء الباحث اللاحق الذي يشرح الترجمة ويستنتج منها حكماً تاريخياً، أصبحت لدينا سلسلة طويلة من الوسائط بين الواقعة التي يفترض أن ابن بطوطة عاينها وبين الحكم الأكاديمي الحديث عليها.

وتؤكد طبيعة نص الرحلة نفسها ضرورة هذا الفصل. فالعلوي، يلفت إلى أن ابن جزي يصرح في خاتمته بالتلخيص، وأن الصورة النهائية المتداولة هي ثمرة هذا العمل التحريري، وهو ما يجعل نسبة كل تركيب لغوي في النص إلى ابن بطوطة مباشرة أمراً يحتاج إلى احتراز (العلوي، 2023، ص ص. 8–9). أما تريسو فذهبت أبعد في التعبير عن المشكلة، فرأت أنه ربما يكون أدق وصف النص بأنه رحلة ابن بطوطة لابن بطوطة وابن جزي معاً بسبب عدم قدرتنا على تحديد مقدار مساهمة كل منهما في جميع المواضع (Tresso, 2023, pp. 56-57).

وقد تضخم أثر اختيارات دفرمري وسانغينيتي بسبب المكانة المرجعية التي اكتسبتها طبعتهما. فالدراسة الحديثة تؤكد أنها أصبحت أكثر نسخ الرحلة انتشاراً، سواء في العربية أو في الترجمات، وأن الترجمة الإنجليزية الكبرى التي أعدها Gibb ثم Beckingham حافظت على تقسيم الطبعة الفرنسية إلى أربعة أجزاء، بل وضعت أرقام صفحاتها في الهوامش لتسهيل المقابلة (Tresso, 2023, pp. 56-58). وهذا يعني أن الطبعة الفرنسية لم تؤثر في القارئ الفرنسي وحده، وإنما ساهمت في تحديد البنية المرجعية التي قرأ بها باحثون من لغات أخرى نص ابن بطوطة.

واستمر هذا الأثر داخل الثقافة الفرنسية نفسها. فعندما أعاد ستيفان يراسيموس نشر الرحلة في ثمانينيات القرن العشرين، لم يقدم ترجمة فرنسية جديدة من الصفر، وإنما أعاد استخدام ترجمة دفرمري وسانغينيتي مع مقدمة وهوامش وخرائط حديثة. وبذلك استمرت اللغة الفرنسية التي صيغت في القرن التاسع عشر في الوصول إلى القراء والباحثين في أواخر القرن العشرين، وإن أصبحت محاطة بجهاز تفسيري أحدث (Yerasimos, 1982).

ولا يعني ذلك أن الطبعة الفرنسية شوّهت صورة ابن بطوطة أو أن جميع اختياراتها خاطئة؛ فهذا الحكم سيكون مناقضاً لما تكشفه المقارنة نفسها. فقد كانت خدمة دفرمري وسانغينيتي للنص عملاً تأسيسياً لا يمكن تجاهله، وقدم التحقيق للبحث الحديث مادة أكثر اكتمالاً من كل ما كان متاحاً قبله. لكن قيمته الكبيرة هي تحديداً ما يجعل نقده واجباً؛ لأن خطأ صغيراً في طبعة هامشية يبقى محدود الأثر، بينما يستطيع اختيار دلالي في طبعة معيارية أن يتكرر في عشرات الدراسات اللاحقة.

وعليه، فإن أثر التحقيق والترجمة الفرنسية في صورة ابن بطوطة كان ذا وجهين: فقد أخرجا الرحلة من نطاق تداول مخطوط محدود إلى فضاء البحث العالمي، ووفرا أساساً لا غنى عنه للدراسات التاريخية والجغرافية؛ لكنهما في الوقت نفسه أدخلا طبقة من الاختيارات النصية واللغوية والتفسيرية بين القارئ الأوروبي والنص العربي. ومن هنا يجب ألا يُنسب إلى ابن بطوطة حكم أو اصطلاح محدد قبل التحقق مما إذا كان موجوداً فعلاً في العربية أم أنه نتاج للترجمة أو التعليق.

**المطلب الثالث: تقويم آراء المستشرقين الفرنسيين في ضوء النص الأصلي والدراسات الحديثة**

تؤكد الموازنة أن عدداً من الملاحظات النقدية القديمة قام على مشكلات حقيقية: اضطراب بعض المسارات والتواريخ، وجود أخبار منقولة، أثر ابن جزي في الصياغة، وحضور العجائبي. ومن ثم كان دفرمري وسانغينيتي محقين في ضرورة الشرح والتصحيح والمقارنة، كما أن فيران أثار إشكالات جغرافية جدية في القسم الصيني لا يجوز تجاوزها لمجرد الدفاع عن الرحالة (Defrémery & Sanguinetti, 1853, pp. xxvii-xxx; Ferrand, 1914, Vol. 2, pp. 426-458).

لكن قوة الملاحظة لا تستلزم دائماً صحة الاستنتاج الأوسع المبني عليها. فتعذر مطابقة بعض المسارات الصينية لا يثبت بذاته أن ابن بطوطة لم يصل إلى أي جزء من الصين. وقد مثّل يراسيموس انتقالاً إلى تقويم أكثر تجزئة حين رأى أنه لا يوجد سبب كاف للشك في إقامة الرحالة في زيتون/تشيوانتشو Quanzhou، وأن المشكلات تصبح أوضح بعد هذه المرحلة، مستنداً إلى إمكان التحقق من بعض الشخصيات والسياق التجاري للميناء (Yerasimos, 1982, Vol. 3, p. 38). وهكذا تحول السؤال من «هل زار الصين؟» إلى: أين تنتهي المشاهدة المباشرة؟ وأين يبدأ الخبر المنقول أو إعادة ترتيب المسار؟

ويعزز فوفيل-أيمار وهيرش هذا الاتجاه حين يريان أن صعوبات المطابقة الطبوغرافية ينبغي ألا تتحول آلياً إلى محاكمة أخلاقية لصدق الرحالة؛ فبناء الرحلة يجمع الواقع الجغرافي والذاكرة والتقاليد الجغرافية والوظيفة السردية. ولا يعني ذلك إعفاء النص من الاختبار، بل يفرض التمييز بين خطأ تحديد المكان وبين اختلاق تجربة السفر بكاملها (Fauvelle-Ayma & Hirsch, 2003, pp. 75-78, 88-94).

ومن زاوية أخرى، تدعم تريسو مبدأ المقارنة بمصادر مستقلة، فقد أظهرت في أخبار الهند أن عدداً من الوقائع يجد ما يؤيده في المصادر الفارسية الهندية، في حين تبقى أخبار أخرى محل نقاش. كما تنبه إلى أن الرحلة ليست يوميات ميدانية خالصة ولا تجميعاً نقلياً محضاً، بل نص مركب تتجاور فيه المشاهدة والخبر الشفوي والمواد المكتوبة والتحرير اللاحق (Tresso, 2023, pp. 60-71). وهذه النتيجة تمنع الانتقال من ثبوت النقل في موضع إلى نفي السفر في مواضع أخرى من غير دليل مستقل.

وتقدم دراسة ميشو تطبيقاً موازياً في القسطنطينية: فهي لا تتجاهل تدخل ابن جزي ولا صعوبات الترجمة، لكنها ترى أن الرواية تظل شهادة تاريخية مهمة إذا فُحصت عناصرها واحدة واحدة (Micheau, 1987, pp. 55-65). وهو ما يؤكد أن وحدة الكتاب لا تعني وحدة درجة المصداقية في جميع أجزائه، وأن النقد الجزئي المقارن أدق من القبول الكلي أو الرفض الكلي.

أما الترجمة، فتظهر آثارها بوضوح في دراسة تريسو للمصطلحات المرتبطة بالأوبئة؛ إذ قد يؤدي نقل لفظ عربي عام إلى مقابل فرنسي أكثر تخصيصاً إلى تغيير طبيعة الواقعة التي يظن الباحث أنه يدرسها (Tresso, 2023, pp. 62-71). وبناء على ذلك، ينبغي مراجعة كل حكم تاريخي يتوقف على لفظ عربي أو تعيين جغرافي في النص العربي قبل نسبته إلى ابن بطوطة نفسه، ولا سيما في المصطلحات الطبية والدينية والإدارية والاجتماعية.

ويفضي ذلك إلى تقويم مزدوج للاستشراق الفرنسي. فمن جهة، لا يمكن إنكار دوره التأسيسي في جمع المخطوطات ومقابلتها ونشر النص وإتاحته للبحث الأوروبي وإثارة أسئلة لا تزال الدراسات الحديثة تناقشها. ومن جهة أخرى، لا يجوز تحويل الطبعة الفرنسية أو استنتاجات فيران أو غيره إلى سلطة نهائية؛ لأن المعرفة الجغرافية والمصدرية تطورت، ولأن الترجمة نفسها قد تضيف طبقة تفسيرية تحتاج إلى النقد (Tresso, 2023, pp. 56-58).

وعليه، تتحدد القيمة العلمية لآراء المستشرقين الفرنسيين بمقدار قربها من النص والمخطوطات والمصادر المستقلة، وبمدى تناسب الاستنتاج مع الأدلة التي تسنده. فما قام على مقارنة قابلة للتحقق يحتفظ بقيمته، وما نشأ من مشكلة في الترجمة

أو من تعميم جزئية على الرحلة كلها يحتاج إلى المراجعة. ومن هنا يصبح إسهامهم مرحلة أساسية في تاريخ نقد الرحلة، لا حكماً نهائياً عليها.

**8 | الخاتمة**

خلصت الدراسة إلى أن رحلة ابن بطوطة احتلت موقعاً مهماً في الدراسات الفرنسية منذ القرن التاسع عشر، وأن هذا الاهتمام بدأ أساساً بتحقيق النص وترجمته ونشره قبل أن يتطور إلى توظيفه في التاريخ والجغرافيا والمؤسسات والاجتماع والدين، وإلى نقد صدقية بعض أخباره ومساراته. وقد جعلت الطبعة الفرنسية لدفرمري وسانغينيتي النص متاحاً على نطاق واسع، فكانت في الوقت نفسه إنجازاً تأسيسياً ووسيطاً نصياً وترجمياً أثّر في تاريخ التلقي الأوروبي.

كما أثبت البحث أن المواقف الفرنسية لم تكن متجانسة. فقد مثّل دفرمري وسانغينيتي اتجاهاً تحقيقيّاً يقوم على الثقة النقدية والمقارنة، بينما بلغ التشكيك ذروته عند غابرييل فيران في بعض مراحل رحلة الشرق الأقصى. ولم يؤد هذا النقد في مجمله إلى إسقاط قيمة الرحلة؛ إذ استمرت الدراسات الفرنسية اللاحقة في استخدامها مصدراً للمؤسسات والمجتمع والدين والعلاقات الثقافية.

وأظهر التقويم النقدي أن مسألة الصدقية لا تختزل في ثنائية الصدق والكذب؛ فالنص يجمع بين تجربة الرحالة والمشاهدة المباشرة والخبر المنقول والذاكرة وتحرير ابن جزي، ثم أضيفت إلى ذلك طبقة التحقيق والترجمة. ولذلك فإن أدق منهج للتعامل معه هو النقد الجزئي المقارن الذي يختبر كل خبر وفق نوعه ومصادره وسياقه، ويفصل بين خطأ الموضع أو الترجمة وبين الحكم على الرحلة بأكملها.

**أولاً: الاستنتاجات**

1. أسهم المشروع الفرنسي، ولا سيما طبعة دفرمري وسانغينيتي، إسهاماً تأسيسياً في نشر رحلة ابن بطوطة وإدخالها إلى البحث الأوروبي الحديث.
2. لا يوجد موقف استشراقي فرنسي واحد من الرحلة؛ بل تتدرج المواقف من التقدير والتحقيق إلى النقد الجزئي والتشكيك في بعض المسارات.
3. انصب أشد نقد غابرييل فيران على جنوب شرق آسيا والصين، ولا يصح تعميمه على بقية الرحلة.
4. أثبت الاستخدام المتنوع للرحلة لدى رينان وكارا دو فو وبوسكيه وشلهود وميكيل وميشو استمرار قيمتها مصدراً تاريخياً وحضارياً رغم التحفظات النقدية.
5. لا تتمتع جميع أخبار الرحلة بدرجة واحدة من الحجية؛ إذ يلزم التمييز بين المشاهدة المباشرة والخبر المنقول والتدخل التحريري.
6. أثرت الترجمة الفرنسية في بعض القراءات اللاحقة، وهو ما يجعل الرجوع إلى النص العربي ضرورياً عندما يتوقف الحكم على مصطلح أو تعيين جغرافي.
7. أظهرت الدراسات الحديثة أن بعض ملاحظات المستشرقين ما زالت ذات قيمة، في حين تحتاج بعض الاستنتاجات الأوسع، خاصة بشأن الصين، إلى التقييد أو إعادة التقويم.
8. يتمثل الإسهام الأصلي للدراسة في قراءة التلقي الفرنسي بوصفه مساراً تاريخياً متطوراً يجمع التحقيق والتوظيف والنقد، لا بوصفه موقفاً استشراقياً ثابتاً أو متجانساً.

**ثانياً: التوصيات**

توصي الدراسة بمواصلة فحص الكتابات الفرنسية عن ابن بطوطة من خلال نصوصها الأصلية، وبإجراء مقارنات دقيقة بين النص العربي والترجمة الفرنسية في المواضع التي يترتب عليها حكم تاريخي، ولا سيما المصطلحات والتعيينات الجغرافية. كما توصي بإعادة دراسة رحلة الشرق الأقصى في ضوء المصادر الصينية والفارسية والعربية والدراسات الجغرافية الحديثة، وبالتمييز الاصطلاحي بين المستشرقين التاريخيين والباحثين الفرنسيين المعاصرين، وتجنب الأحكام الكلية على «الاستشراق الفرنسي» من غير تحليل أدلة كل باحث وسياقه ومنهجه.

قائمة المصادر والمراجع

العلوي، عبد الله. (2023). ابن بطوطة في الصين. أكورا للنشر والتوزيع.

حسن، زكي محمد. (2013). الرحالة المسلمون في العصور الوسطى. مؤسسة هنداوي. (العمل الأصلي نشر عام 1945).

منصور، نعيمة. (2011). جماليات الخطاب في رحلة ابن بطوطة: دراسة تحليلية تطبيقية [رسالة ماجستير، جامعة وهران–السانيا].

Bousquet, G.-H. (1966). Ibn Battūta et les institutions musulmanes. *Studia Islamica, 24*, 81–106.

Carra de Vaux, B. (1909). *La doctrine de l'Islam*. Gabriel Beauchesne.

Chelhod, J. (1978). Ibn Battuta, ethnologue. *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, 25*, 5–24. https://doi.org/10.3406/remmm.1978.1801

Defrémery, C., & Sanguinetti, B. R. (1853). Préface des éditeurs et traducteurs. In Ibn Battuta, *Voyages d'Ibn Batoutah: Texte arabe, accompagné d'une traduction* (Vol. 1, pp. i-xxxiv). Imprimerie Impériale.

Fauvelle-Aymar, F.-X., & Hirsch, B. (2003). Voyage aux frontières du monde: Topologie, narration et jeux de miroir dans la *Rihla* de Ibn Battûta. *Afrique & Histoire, 1*(1), 75–122. https://doi.org/10.3917/afhi.001.0075

Ferrand, G. (1914). Ibn Baṭūṭa (vers 1355). In *Relations de voyages et textes géographiques arabes, persans et turks relatifs à l'Extrême-Orient du VIIIe au XVIIIe siècles* (Vol. 2, pp. 426-458). Ernest Leroux.

Ibn Battuta. (1853–1859). *Voyages d'Ibn Batoutah: Texte arabe, accompagné d'une traduction* & .C. Defrémery & B. R. Sanguinetti, Eds) Trans.; Vols. 1-4).Imprimerie Impériale .

Micheau, F. (1987). Ibn Baṭṭūṭa à Constantinople la Grande. *Médiévales, 6*(12), 55–65. https://doi.org/10.3406/medi.1987.1057

Miquel, A. (1978). L'Islam d'Ibn Battûta. *Bulletin d'études orientales, 30*, 75–83.

Renan, E. (1878). Ibn-Batoutah. In *Mélanges d'histoire et de voyages* (pp. 291-303)Calmann- . Lévy. (Original work published 1853).

Thouroude, G. (2021). Perspectives littéraires sur l'oeuvre d'Ibn Battuta: Le merveilleux, l'auctorialité et la double rhétorique du voyageur. *Études littéraires, 50*(2), 177–190. https://doi.org/10.7202/1084004ar

Tresso, C. M. (2023). India's epidemics in the *Riḥla* of Ibn Baṭṭūṭa: Plague, cholera or lexical muddle? *Bulletin of the School of Oriental and African Studies, 86*(1), 55–77. https://doi.org/10.1017/S0041977X23000204

Yerasimos, S. (1982). Introduction et notes. In Ibn Battûta, *Voyages III: Inde, Extrême-Orient, Espagne & Soudan* (.C. Defrémery & B. R. Sanguinetti, Trans).François Maspero .